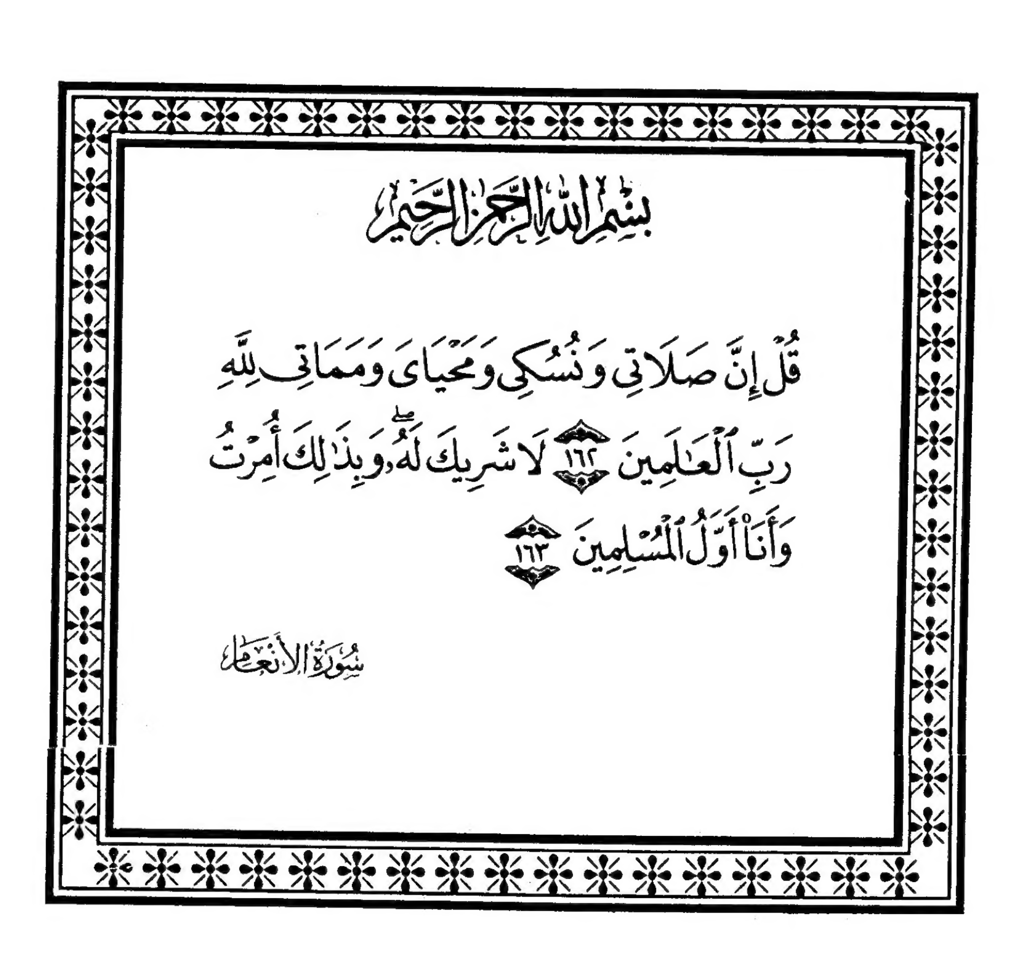
العقيدة نبع التربية

تأليف
الدكتور أحمد بن ناصر بن محمد الحمد

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ

يُطلب من مكتبة التراث
مكّة المكرّمة
ت : ٥٥٨١٥٩٤

العقيدة نبع التربية


بسم الله الرحمن الرحيم
قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ
وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ١٦٣
سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فإنّ القاعدة الصلبة كما لا بد منها للأبنية الشاهقة ، فهي مهمة لما دون ذلك من البناء ، والإنسان يشكل لبنة في المجتمع البشري به يتكامل بناؤه ويزدان ، وما لم تكن المادة جيدة ، والبّنـاء ماهراً ، فلا شموخ ولا جمال للبناء .

وما لم يُعَدّ أفراد الأمة إعداداً يتكامل به بناء المجتمع ، لم يستطع الأفراد المحافظة على وجودهم في الحياة ، حيث لم يفطروا على ما يحفظ لهم البقاء في الحياة كباقي الكائنات .

لهذا كان لزاماً على الأمة العناية بتربية الإنسان تربية تهيئه للقيام بما خُلق من أجله ، وبذلك يصبح عامـلاً لمصلحة الأمـة كلهـا ، فهو أحـد عناصرهـا ، وإذا طاب طـابت جميعها فكـان

المجتمع المثمر . لكن البشرية اختلفت في طباعها وعاداتها تبعاً لاختلافها في العقول ، والإدراك، وبقية القوى، ولكل أُمة منهجها في إعداد أفرادها لمبادئها ، وسلوك طريق أمة ، أو طائفة موصل إلى أهله ، فمن يسلك طريق روما لا يصل إلى مكة المكرمة . فواجب المهتمين بالتربية من المسلمين ، إعداد الأجيال إعداداً يهيئهم إلى تحقيق الهدف السامي الذي خلقوا من أجله، وذلك ببناء الأفكار التربوية على القواعد الإيمانية، فالخطأ في المقدمة يؤدي إلى الخطأ في النتيجة، وما لم تبن التربية على الفكر الصحيح المحقّق للكمال الإنساني ـ العبودية لله ـ تعالى ـ كان نقصاً في بنيتها، كما أنّها إذا لم تكن تخدم منهجاً مؤصلاً أصبحت مجرد وجهات نظر، فما يعّد منهجاً تربوياً مفيداً في نظر شخصٍ ، أو في منهج أُمة، يعد بخلاف ذلك عند آخرين.

والبناء التربوي المفيد ما كان صواباً ملائماً للإنسان ، فإذا بُني على التعليمات الربانية كان صواباً ملائماً ، لأن خالق النفوس وأوعيتها هو العليم بخفاياها ، وما يصلحها ، وما يفسدها ، قال تعالى : ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السر وأخفى** ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[2] .

لكن اختلاف النظرة إلى الإنسان ، موجب للاختلاف في الأهداف مما يلزم عليه اختلاف الإعداد .

---

(١) سورة طه آية (٧) .　　(٢) سورة ق آية (١٦) .

ومن يعلم مخالفة أهداف أمة من الأمم لأهدافه ، فيتابعها في أفكارها ؛ يعد قاصراً في فهمه ومخطئاً في منهجه .

وسأحاول في هذا البحث تقديم بعض المسائل التي لمست احتياج دارسي التربية إليها ـ بعد تساؤلاتٍ كثيرة من بعض طلاب التربية حول مسائل وأفكار منثورة في مؤلفات التربويين ، فآخترت لهذ البحث عنوان : « العقيدة نبع التربية » ويشتمل بعد المقدمة على خمسة فصول وخاتمة . وبيان ذلك كالتالي :

الفصل الأول : مفهوم العقيدة :

وفيه سأذكر خلق الله ـ تعالى ـ الإنسان على الفطرة ، وإرسال الرسل إلى جميع الأمم ، واتحادهم في الدعوة إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، ثم ما يتحقق به الإيمان ، وما يطلق عليه أنّه عقيدة .

الفصل الثاني : مفهوم التربية :

وهنا سأتعرض لواجب التربوي ، وطرق أهل الباطل ، ثم ترتب الثواب والعقاب على الأعمال . ثم بيان معاني التربية .

الفصل الثالث : صلة التربية بالعقيدة .

وبعد مقدمة في الموضوع سأذكر ماهية الإيمان الحقيقي ، فأهمية العقيدة ، وبعد ذلك أوضح علاقة الغذاء بالروح ، ، ثم تأصيل التربية ، وضرب أمثلة من آثار التربية .

الفصل الرابع : العلم والعمل تربية الإنسانية .

وتحت هذا الفصل ، سأستدل على تَعَهُّدِ الله ـ تعالى ـ الإنسان منذ أُهبط إلى الأرض ، وأنه لا سعادة له بعيداً عن الوحي ، ثم أُبين اهتمام الدين الإسلامي بالعلم .

الفصل الخامس : أمثلة من أخطاء بعض التربويين ونقدها .

وهذا الفصل هو غاية البحث ، وما فيه من أمثلة هي مما جاء في كتاب « اتجاهات التربية عبر العصور - دراسة تحليلية مقارنة » تأليف الدكتور عرفات عبد العزيز . وسأصنف الأخطاء تحت ثلاثة عناوين :

الأول : مسألة التدين .

سرد النصوص المشتملة على الأخطاء من الكتاب المذكور ، ثم تصوير وجه المخالفة تحت فقرات ، ثم نقدها واحدة واحدة .

الثاني : مفهومات خاطئة .

وتحت هذا أمور :

١ - النظرة إلى الديانة المسيحية من كونها تنظمت في بداية القرن الرابع ، وتكاملت بعد ذلك في القرن الثامن الميلادي . ونقد هذه النظرة من حيث الواقع ومن حيث الحكم .

٢ - تسمية الخلافة العثمانية استعماراً - وهنا سأبين معنى الاستعمار ، وعدم صدقه على الخلافة العثمانية . ثم ذكر حالة الأمة الإسلامية بعد نبيها ، وما جرى لها في بعض الفترات ، ثم أشير إلى وجوب طاعة الأئمة .

وبعد ذلك ذكر بداية الأتراك في التاريخ الإسلامي ، واستيلائهم على الخلافة ، وأسباب تخلف المسلمين .

٣ - جزئيات خاصة - وتحت هذا أمورٌ :

أ - في رهبانية النصارى أُبين هنا أنّ ما هم عليه خطأٌ في التطبيق زيادة على كونه بدعة في الدين .

ب ـ رجال الدين في المسيحية والإسلام ـ أُشير هنا إلى عدم صحة الإطلاق بالنسبة للمسلمين فهم جميعاً من رجاله عالمهم ومن دونه ، لكن الواجبات تختلف بحسب الأحوال .

ج ـ الموسيقى ـ جعلها ممّا يربي الوجدان ـ سأذكر حكمها وحصول ضررها ، لكونها لهواً وطريقاً يستغله الشيطان للإضلال .

الثالث : أمور جاهلية :

وتحت هذ أمران :

الأول : فخر بغير حق .

وذلـك بنسبة أشيـاء للمصريين إمّـا ابتكاراً ، أو تأثيراً ، وهنا أذكر ما رأيته صواباً في الأمر ، وجل تلك الأمـور مبني على أنّ الإنسان تـطور في جميـع شؤونه .

الثاني : فخر بالوثنية .

افتخر الكاتب بـأمورٍ لا يحق للمسلم الفخـر بها لكونها باطلاً ، وسأوضح أنّ تلك معـايب ، وما يمكن عدّه حسناً فيهـا هو من بقـايا آثـار الأنبياء السابقين لا كما زعموا .

وبعد هـذا الخاتمةُ ، وفيها سأذكـر ـ إن شاء الله تعـالى ـ ما أصل إليه من نتائج ، والله المستعان في البدء والختام . وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المؤلف

يتكون الكتاب من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة
الفصل الأول مفهوم العقيدة
" الثاني مفهوم التربية
" الثالث صلة التربية بالعقيدة
" الرابع العلم والعمل في التربية الإسلامية
" الخامس أخطاء بعض التربويين ونقدها
... هذا الكتاب يرد على ... التربية عبر العصور .
عرفات عبد العزيز



الفصل الأول ـ مفهوم العقيدة

خلق الله تبارك وتعالى الإنسان عاقلاً مختاراً ، وجعل عقله مناط تكليفه ، واختياره سبب مجازاته ، ولم يترك عقله يهيم بلا نور ، ولا اختياره يطيش بلا موجه ، بل فطره على معرفته ، وأرسل إليه رسله كما أخبر عن ذلك بقوله : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] .

وروى الإمام مسلم بسنده عن عياض بن حمار المجاشعي ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ذات يوم في خطبته : « ألا إنّ ربي أمرني أن أُعلمكم ما جهلتم مما علمني ، يومي هذا ، كل ما نحلته عبداً ، حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم [2] عن دينهم . وحرمت عليهم

---

(١) سورة الروم آية (٣٠) .

(٢) يقول الإمام النووي في شرحه لهذه العبارة : « فاجتالتهم . هكذا هو في نسخ بلادنا : فاجتالتهم . وكذا نقله القاضي عن رواية الأكثرين . أي استخفوهم فذهبوا بهم ، وأزالوهم عما كانوا عليه ، وجالوا معهم في الباطل . » شرح النووي على مسلم ١٧ / ١٩٧ .

ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً . . . الحديث »[1] .

وروى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من مولود ، إلّا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة ، هل تحسون فيها من جدعاء . ثم يقول أبو هريرة - رضي الله عنه - : « ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾ [2] [3].

وعن إرسال الرسل إلى جميع الخلق يقول تعالى : ﴿ **إنّا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من إمة إلّا خلا فيها**

---

(1) صحيح الإمام مسلم كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤ /٢١٩٧ ، ٢١٩٨ ، وانظر مسند الإمام أحمد ٤ /١٦٢ . وفيه بدل « فاجتالتهم ، فأضلتهم » .

(2) سورة الروم آية (٣٠) .

(3) صحيح الإمام البخاري كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ٢ /١١٨ ، ١١٩ . وانظر من الصحيح أيضاً كتاب التفسير ، تفسير سورة الروم ٦ /١٤٣ ، كتاب القدر ، باب علم الله بما كانوا عاملين ٨ /١٥٣ . صحيح الإمام مسلم كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ٤ /٢٠٤٧ ، ٢٠٤٨ . سنن أبي داود كتاب السنة ، باب في ذراري المشركين ١ /٢٢٩ ، ٢٣٠ . سنن الترمذي كتاب القدر ، باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة ٤ /٤٤٧ . موطأ الإمام مالك كتاب الجنائز ، باب جامع الجنائز ١ /٢٤١ . مسند الإمام أحمد ٢ /٢٣٣ ، ٢٥٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٣١٥ ، ٣٤٧ ، ٣٩٣ ، ٤١٠ ، ٤٨١ ، ٣ /٤٣٥ ، ٤ /٢٤ .

نذير ﴾[1] . وقال تعالى مخبراً عمّا يكون من سؤال أهل النار لخزنتها وجوابهم لهم : ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب. قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾[2] .

في النصوص السابقة من الكتاب والسنّة دلالة على أنّ الإنسان مفطور على الدين ، وأن الرسل جاؤوا إلى جميع الأمم مبشرين ومنذرين ، وجميعهم من لدن آدم إلى محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ دعوا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه ، والإيمان بالملائكة ، والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر . كما أخبر تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط . وما أوتي موسى وعيسى . وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[3] وقوله: ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[4] وقوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك . وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن

---

(١) سورة فاطر آية (٢٤) .

(٢) سورة المؤمن الآيتان (٤٩ ، ٥٠) .

(٣) سورة البقرة آية (١٣٦) .

(٤) سورة البقرة آية (٢٨٥) .

أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيـــب ﴾[1] . ومن السنّة ما رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أنا أولى النـاس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء أخوة لعـلات أمهـاتهم شتى ودينهم واحد »[2] .

وهذه الأمور التي دلت النصوص على اتفاقها بـين الشرائـع هي أصـول الـدين وهي تـطلب علماً والعلم الحقيقي لا يتغـير ، وما يطلب عملاً أتى بحسب الأمم . قال تعـالى : **﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾**[3] .

ومـا إليه الإشـارة في الحـديث « أمهـاتهم شتى » وفي الآيـة الكريمة **﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾** دليل على أن لكل أمة شريعة تخالف الأخرى ، والشرائع في كل أمة جزء إيمانها ، وهي طريق رسوخ علمهـا ونمائـه وإثماره . كـما أنه بـرهان استجـابتها ، وشعار عقيدتها ، فكان الإيمان والعمل ، أساس سعادة الإنسان في دنيـاه وآخـرتـه كـما أخبـر تعـالى عن ذلـك في كثـير من الآيــات

(١) سورة الشورى آية (١٣) .

(٢) صحيح الإمام البخاري كتاب الأنبياء ، باب : واذكـر في الكتاب مـريم إذ انتبــذت من أهلهــا ٤ /٢٠٣ . وانــظر صحيــح الإمـــام مسلم كـتـــاب الفضـائل ، بـاب فضل عيسى عليـه السلام ، ٤ /١٨٣٧ ، مسنـد الإمـام أحمد ٢ /٣١٩ ، ٤٠٦ ، ٤٣٧ ، ٤٨٢ .

(٣) سورة المائدة آية (٤٨) .

القرآنية منها قوله تعالى : ﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ والعصر إنَّ الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[3] .

وعلى هذا فأعمال القلوب ، وأعمال الجوارح هي الإيمان ، والأعمال هي البرهان الصادق على صحته ، يخبر تعالى عن المؤمنين حق الإيمان بقوله : ﴿ إنّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾[4] . وقوله : ﴿ إنّما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾[5] . كما نفى سبحانه وتعالى الإيمان عن الراغبين عن حكم الله ـ تعالى إعراضاً ، أو عدم قناعة بقوله :

---

(١) سورة الكهف آية (١٠٧) .
(٢) سورة الحجرات آية (١٥) .
(٣) سورة العصر الآيات (١ ـ ٣) .
(٤) سورة الأنفال الآيات (٢ ـ ٤) .
(٥) سورة النور آية (٥١) .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [(١)] .

بهذا المعنى الواسع يقين القلب وانقياد الجوارح يتحقق الإيمان وقد جاء إطلاق لفظ الإيمان على الأمور الاعتقادية التي لا تتعلق بكيفية عمل ، في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ حين سأل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن الإسلام والإيمان ، والإحسان . . روى مسلم بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً بارزاً للناس ، فأتاه رجل . فقال : يا رسول الله ! ما الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر » [(٢)] . وهذا هو الإيمان مطلقاً إيمان هذه الأمة ، وإيمان الأمم السابقة لها ، ومسائل الإيمان هذه إذا استقرت في النفوس ، وتعلقت بها القلوب واطمأنت إليها تحركت الجوارح على ضوئها ، فسميت عقيدة ، وما لم تبلغ هذا المبلغ لا تعد

---

(١) سورة النساء آية (٦٥) .

(٢) صحيح الإمام مسلم كتاب الإيمان ، باب الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ١/٣٩ . وانظر صحيح الإمام البخاري كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ١/١٩ ، ٢٠ ، كتاب التفسير تفسير سورة لقمان ٦ /١٤٤ ، سنن ابن ماجة المقدمة ١/٢٥ ـ وعنده أيضاً من رواية ابن عمر عن عمر زيادة « والقدر خيره وشره » ١ /٢٤ ، وهي عند الإمام أحمد في المسند ١ /٥١ ، ٥٢ ، ٣١٩ ، ٢ /١٠٧ ، ٤ /١٢٩ ، ١٦٤ . وعند أحمد أيضاً كما في رواية الصحيحين ١ /٢٧ ، ٢٨ ، ٢ /٤٢٦ ، ٤ /١١ ، ١١٤ .

عقيدة بمعناها الحقيقي ، الذي مداره على اللزوم والاستيثاق والتأكد المبني على الإدراك التام[1] .

وقد يسمى عقيدة ما دون ذلك تسمية له بمادته : الأمور العلمية التي يجب أن تعتقد مما دعا إليه الرسل[2] . والله أعلم .

---

(١) انظر لسان العرب مادة « عقد » ٣ / ٢٩٧ . والمصباح المنير٢ / ٧١ .

(٢) انظر في هذا : لوامع الأنوار البهية للسفاريني ١ / ٤ ، الإسلام عقيدة وشريعة لشلتوت ص ٥٢ ، العقيدة والأخلاق لبيصار ص ١٨ ، العقائد الإسلامية لسيد سابق ص ٨ ، ٩ . العقيدة في الله للأشقر ص ٧ ، ٨ .

الفصل الثاني - مفهوم التربية

ليس الهدف من تحديد مفهوم التربية هنا ، هو عرض تعريفاتها ، لدى الأمم المختلفة ، ونقدها ، بقدر ما هو بيان المقصود بها لدى الأمم المختلفة تبعاً لاختلاف نظرة كلٍ إلى الإنسان والكون والحياة .

لهذا فواجب كل تربوي أن يبني أفكاره التربوية على ما يتمشى مع نظرة أمته إلى المقصود بالتربية - إن لم يكن مخالفاً لها جملة، أو تفصيلاً - وأن لا يقدم في دراساته معلومات مخالفة لمبادئها ومعتقداتها ، نتيجة تقصير في تحصيلها ، أو خلط بينها وبين غيرها مما يخالفها؛ لأن ذلك من صلب الإعداد التربوي الأصيل لأفرادها ، وليس من شأن أي أمة أن تترك مبادئها ، وعقائدها ، ومُثلها، وتستبدل بها سواها ، حتى ولو أن ما هي عليه باطلٌ، بل وتسعى جاهدة لاتباع الآخرين لها، كما أخبر الله - تعالى - عن هذه الحالة بقوله تعالى : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدي الله هو**

الهدي ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾[1] .

وقد ينهج أتباع المذاهب والديانات الباطلة ـ خوفاً من إشاعة بطلان ما هم عليه ، وتغيّر آراء الجمهور نحوهم ـ سبلاً شتى يدعون فيها لترك التدين ، أو التعصب لمذهب، أو نحلة ، تحت شعارات براقة كاذبة كالإنسانية ، والعلمانية ، أو غير ذلك ليجروا المحقين ، ويبعدوهم عن الصواب الذي هم عليه ، حسداً من عند أنفسهم ، وقد يستجيب لهذا النداء كثيرون من أفراد الأمة الإسلامية، ممن لا يفرقون بين المتغيرات والثوابت ، وممن يضيفون الأحداث إلى غير أسبابها ، وممن يفضلون الورد الكاذب لكثرة أزهاره واحمرارها على الورد الحقيقي لكونه ليس كذلك ، ويغفلون عن حقيقة هذا وذاك .

فنجد في مجتمعنا من يربط حضارة الأمم الصناعية بإعدادها التربوي وثقافتها ، ويجعل الثاني سبباً حتمياً للأول ، والحقيقة أن الحكم ليس على إطلاقه بالنسبة لواقع تلك الأمم ، مع أن الإعداد التربوي الصحيح من الأسس المتينة لنهضة الأمم وتقدمها ، ولكن الإعداد التربوي في الأمم الصناعية بادي التقصير في كثيرٍ من جوانب الثقافة اللازمة للبشرية ، وصورة الواقع لكثيرٍ من أفراد هذه الشعوب تبوح بقصور إعدادها التربوي ، ومن أنْعَمَ النظر في سبل حصول تلك

---

(١) سورة البقرة آية (١٢٠) .

المخترعات العجيبة ، والمصنوعات المثيرة ، كيف يعدون لها ويسعون لتحقيقها ، ومقدار ما يبذلونه في طرقها ، أدرك أسبابها الحقة، ولم يربطها بالجانب التقصيري في إعدادهم التربوي حيث إنّ هذه الأمم المتقدمة صناعياً أهملت في إعدادها التربوي شطر الإنسانية كاملاً فليس لتربية الروح أي اعتبار في توجيه أفرادها، لهذا فقد اتجهوا بكليتهم إلى تلبية رغباتهم الجسدية وعملوا جاهدين، لها، وعليها، في وضع الضوابط والأحكام، ولا شك في خطأ هذا المنهج، وواقع هذه الأمم يبرهن في كل لحظة على ذلك، بكثرة الانتحار وأنواع الجرائم الأخرى، وانتشار الطبقية بين الأفراد.

وقد أوضحت في حديثي عن مفهوم العقيدة ، كون الإنسان مخلوقاً موجهاً بالفطرة ، ثم بإرسال الرسل إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ إيماناً به ، وبملائكته ، وكتبه، ورسله ،واليوم الآخر،والقدر خيره وشره .

وهذا ما اتفقت عليه دعوة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أولهم إلى آخرهم، والإيمان بذلك أساس كل بناء صالح في المجتمعات البشرية وهو منبع كل فضيلة في الحياة الدنيا ، وطريق الأمان الموصل إلى النتائج الحسنة في الدار الآخرة .

وقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ في شريعة كل أمة ما يكفل لها حياة آمنة مطمئنة ، وعاقبة حميدة ، إن هي قامت بتطبيقها ؛ لأن فيها رسم مسار كل شخص في الحياة من العليم الخبير

الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه ، وما به تستقيم حياته ، وحياة المجتمع ، فرتب جزاءه على أعماله فأحصاها عليه قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قولٍ إلاَّ لديه رقيب عتيد ﴾[1] . وقد خلق الله تبارك وتعالى الإنسان في قوام يتمكن به من النهوض بمتطلبات عمارة الأرض التي استخلف فيها قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾[2] . وقال : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار ، والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[3] . وقال : ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾[4] .

وقد جعل العليم الحكيم لهذا المخلوق في كل تحرك مقصود جزاء بحسب ما أودع فيه من القوى . وعلى ضوء ما أرسل إليه من هدي السماء ، ثم رتّب الثواب والعقاب على

(١) سورة ق الآيات (١٦ ـ ١٨) .
(٢) سورة التين آية (٤) .
(٣) سورة النحل آية (٧٨) .
(٤) سورة السجدة الآيات (٦ ـ ٩) .

إخلاصه في النية والعمل ، دوافع وضوابط ، الاستجابة لها ومراعاتها ، تأخذ بالأمم إلى أعلى المستويات ، كما أنّ ملاحظتها تكسب وصفاً نظرياً تبني عليه حضارات الأمم ، ممّن يضع نفسه في هذا الموضع البناء - الإعداد التربوي - فمهمته شاقة جداً ، بقدر مكانتها وسموها لفظاً ومعنى ، فالتربية في لفظها اللغوي من مادة « الرب » .

قال الراغب الأصفهاني « الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام ، يقال ربّه وربّاه وربّبَه »[1] . ويُقال : ربّ ولده ، والصبي يربّه ربّاً ، ورَبّبَهُ تربيباً ، بمعنى رباه . تربية : أي حفظه ورعاه ونشأه . فالتربية هي : الإصلاح ، والإتمام ، والزيادة ، والتنمية ، وممّا يطلق عليه لفظ الرب في اللغة : المربي ، والقيم ، والمنعم[2] .

وقد ذكر المؤلفون في التربية كثيراً من التعريفات لمصطلحها عندهم : فممّا عرفها به الغربيون قولهم : « التربية عملية قصدية يتم عن طريقها توجيه الأفراد الإنسانيين لنمو الأفراد الإنسانيين »[3] . ويقصدون بهذا توجيه نمو الأفراد إلى ما تتحقق فيه الامكانيات الفردية بالتفاعل مع الكائنات المحيطة ،

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ١٨٤ .

(٢) انظر اللسان مادة « ربب » ١ / ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ .

(٣) فلسفة التربية لفيليب هـ - فينكس ص ٣٧ .

أي علاقة الإنسان بكل شيء ـ الإنسان وجميع الكائنات الموجودة في العالم من حوله (الطبيعة) ويصور كثير منهم كل قوى الطبيعة ، وكثير من الكائنات الموجودة فيها بعدو للإنسان ، أو عقبة في طريق حياته ، لا بد له من مصارعته أو اجتيازه، والتغلب عليه ، وعلى هذا فمن أهداف التربية الأساسية تسليح الفرد للنضال الفعّال مع عدوه بحسبه، سواء كان بدائياً، أو في مجتمع متحضر[1] .

وأصحاب هذه النظرة المادية لا يدخلون في التربية شيئاً ممّا فوق الطبيعة، وهذا جلي في المعنى الذي يكاد يجمع عليه فلاسفة التربية الحديثة[2] . من أنّها : تحقيق النمو والحياة لدى الناشيء، باستغلاله القوى المحيطة به لمصلحته[3] .

ولا شك في أن هذا المعنى هيأ أُمة تجري حثيثة وراء المصلحة الذاتية بعيداً عن القيم والأخلاق السامية؛ لأن اتجاه حركة التربية يتحدد بأهداف المجتمع[4] . وهذه المجتمعات كل أهدافها، اشباع الغرائز الحيوانية في الإنسان.

وهناك من سما بوظيفة التربية عن مجرد الصراع للحياة ـ

---

(١) انظر : فلسفة التربية ص ٢٨٧ ـ ٢٩٥ .

(٢) انظر : التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة للنحلاوي ص ٤ . نقلاً. عن الغربيين .

(٣) انظر : الديمقراطية والتربية لجون ديوي ص ١ . والتربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة للنحلاوي ص ٤ ..

(٤) انظر : الأصول الفلسفية للتربية للدكتور محمد عفيف ص ٩١ .

وإن لم يبلغ بها مكانها الحقيقي - إلى أنها تسعى لتكوين إنسان فيه كل خصائص الكائن الإنساني فقال : إن التربية « عملية تكيف بين الفرد وبيئته، وهذه العملية تنشأ عن اشتراك الفرد بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة في الحياة الاجتماعية الواعية للجنس البشري . وباستمرار هذه المشاركة واتصالها ، تتشكل عادات الفرد واتجاهاته، وقيمه الفكرية، والخلقية، والاجتماعية فهي تمثل الحصيلة الكلية لاتحاد الخبرات الإنسانية التي تشكل ما يسمى بالشخصية . فتبدو من هنا متطورة مستمرة تسير داخل الإنسان ، هادفة إلى أن يصبح إنساناً فيه خصائص الكائن الإنساني، في التفكير، والإرادة، والوجدان»[1] .

وهؤلاء، وأولئك، لم يحددوا معنى التربية حقاً، حيث أخفقوا في فهم الهدف من خلق الإنسان وتكوينه . وقد وفق الله - تعالى - أهل البصيرة، من الممتثلين للشرائع السماوية، المستمعين إلى قوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون** ﴾[2] . وقوله : ﴿ **وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾[3] . وقوله : ﴿ **إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** ﴾[4] . وقوله : ﴿ **الذي خلق الموت**

---

(١) في اجتماعيات التربية لمنير المرسي سرحان ص ١٩ .

(٢) سورة الذاريات آية (٥٦) .

(٣) سورة هود آية (٧) .

(٤) سورة الكهف آية (٧) .

والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾[1] .

ولتحقيق العبادة لله ـ تعالى ـ وحسن العمل ، يأتي دور التربية الواعية بمعناها الإسلامي ، كما يفهم من كتابي : أصول التربية الإسلامية[2] . ونظرات في التربية الإسلامية[3] . بأنّها : «تطوير الإنسان وتهذيبه ، لحمل الأمانة ، وتحقيق الخلافة[4]» .

يصور هذا النحلاوي بقوله : إنها « عملية تتعلق قبل كل شيء بتهيئة عقل الإنسان وفكره وتصوراته عن الكون والحياة ، وعن دوره وعلاقته بهذه الدنيا ، وعلى أي وجه ينتفع بهذا الكون ، وبهذه الدنيا . . وعن غاية هذه الحياة المؤقتة التي يحياها الإنسان ، والهدف الذي يجب أن يوجه مساعيه إلى تحقيقه »[5] .

ومن غير اعتراض على هذا التعريف من حيث ما يشمله . أقول : إنّ قول الله ـ تعالى : **﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾**[6] . وقوله تعالى : **﴿ والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلاّ الذي آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا**

---

(١) سورة الملك آية (٢) .

(٢) أصول التربية الاسلامية وأساليبها لعبد الرحمن النحلاوي .

(٣) نظرات في التربية الاسلامية لعز الدين التميمي ، وبدر اسماعيل سمرين .

(٤) انظر أصول التربية ص : ١٧ ـ ٢٥ ، ونظرات في التربية ص ٤٣ ـ ٤٧ .

(٥) أصول التربية الاسلامية ص : ٢٦ .

(٦) سورة آل عمران آية (١١٠) .

بالصبر ﴾[1]، منهما يتحدد معنى التربية فيُقال هي : عملية إرادية في إطار الإيمان بالله لتوجيه الفرد والجماعة الإنسانية إلى النافع والتحذير من الضار . وأرى في هذا شمولاً لجميع شؤون الحياة في الدنيا ، وسمّواً فيها إلى المكانة اللائقة بالإنسانية وتحقيقاً للهدف السامي لها، لتنعم في الدار الآخرة بما زرعته في الدنيا . والله أعلم .

عمليه إراديه في إطار الايمان بالله لتو.

عمليه إراديه في إطار الايمان بالله لتوجيه الفرد والجماعه الانسانيه الى النافع والتحذير من الض

(١) سورة العصر الآيات (١ ـ ٣) .



الفصل الثالث ـ صلة التربية بالعقيدة

لما كانت التربية بناء الإنسان على ما يحقق الهدف السامي من خلقه كما سبق[1] ، وكانت العقيدة هي أصول الدين إذا تأصلت في النفوس واستقرت في القلوب ، وزرع هذه الأصول وترسيخها في النفوس ، هو القاعدة الصلبة، والمرتكز الأساسي الذي تبنى عليه الأهداف ، وبتحققها ضمان استجابة الجوارح وانقياد الهوى إلى كل الأمور التي يرشد إليها الهادي البشير ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي لا ينطق عن الهوى، كما أخبر تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلاَّ وحي يوحى ، علمه شديد القوى** ﴾[2] . وباتباع ما يوحى والتسليم لما يقضي ، يصح انقياد الهوى . يقول تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾[3] . ويقول تعالى :

---

(١) انظر ص (٢٦، ٢٧).

(٢) سورة النجم الأيات (٣ ـ ٥) .

(٣) سورة النساء آية (٦٥) .

﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ، إنّما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومّما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾[1] .

فالإيمان بالانقياد الظاهر ، والطمأنينة الباطنة لأمر الله - تعالى - وحكمه ، والعمل بحسب الأمر والنهي ، رغبة ، ورهبة ، هو الإيمان الحق الذي به تتربى الأمة ويعمر الكون ، وبه يبلغ الخلق السعادة في الحياة الدنيا والآخرة . جاء في الأثر : « ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال »[2] ، كما أن ارتكاب المنهيات ، وترك المأمورات دليل عدم رسوخ الأصول الإيمانية التي دعا إليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحث على التمسك بها حيث قد نفى صلوات الله وسلامه عليه ، الإيمان عن مرتكبي بعض المخالفات الدينية حال فعلها . روى البخاري بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ،

---

(١) سورة الأنفال الآيات (١ - ٤) .

(٢) انظر : اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ٤٢ ، ٤٣ ، ورامـوز الحديث للكمشخانوي ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ رقم (٤٤٦٥) وقال : خرجه أبو نعيم وابن النجار عن أنس .

ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن »[1] .

في هذا الحديث، وغيره مما جاء مماثلاً له تأكيد تبعية الجوارح لإيمان القلب، فصدور الفعل المنافي للدين دليل عدم التصديق الباطن بأحكامه كما لا يخفى ذلك أيضاً في لحن القول وإن نافق صاحبه، كما قال تعالى لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾**[2] .

ولأهمية العقيدة في تربية الإنسان كانت دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ـ إلى العقيدة أولاً سمواً بالروح وتعليقاً لها ببارئها لترتقي بجسم صاحبها عن ركونه إلى تحقيق رغباته (المادية) التي يتجه إليها بميله الفطري من غير توجيه والتي هي

---

(١) صحيح الإمام البخاري كتاب المظالم باب النُّهْبى بغير إذن صاحبه ٣ /١٧٨ ، كتاب الأشربة ، باب قول الله تعالى : **﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴾** ٧ /١٣٥ ، ١٣٦ . كتاب الحدود ، باب لا يشرب الخمر ٨ /١٩٥ ، ١٩٦ . باب السارق حين يسرق ٨ /١٩٧ ، وانظر صحيح الإمام مسلم كتاب الإيمان باب بيان أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن ١ /٧٦ ، ٧٧ . وسنن الترمذي كتاب الإيمان ، باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن ٥ /١٥ ، وسنن ابن ماجة كتاب الفتن ، باب النهي عن النهبة ٢ /١٢٩٨ ، وسنن الدارمي : كتاب الأشربة ، باب التغليظ لمن شرب الخمر ٢ /١١٥ .

(٢) سورة محمد الآيتان (٢٩ ، ٣٠) .

طريق سهل يستغله الشيطان للخروج بالإنسان عن استقامته التي لا تحصل إلاَّ في حالة الاعتدال في تحقيق متطلبات جسمه وروحه ، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ، ولا يكون في تحقيق رغبة أحدهما ما يلحق ضرراً بالآخر ، فجاءت الشرائع السماوية بإحلال الطيبات وتحريم الخبائث ، لئلا يكون في متعة البدن وتحقيق مطالبه ما ينعكس على الروح بالضرر من إفساد المزاج الناتج عن الأخلاط الرديئة في البدن بسبب تناول الأغذية الضارة ، أو الإكثار من الأغذية حتى وإن كانت نافعة لكون ذلك مثقل للبدن ، مضيّع لسعيه في غذاء روحه قال تعالى : **﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصّل الآيات لقومٍ يعلمون * قل إنّما حرّم ربيّ الفواحش ما ظهر منها وما بطنَ والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾**[1] .

وروى الإمام الترمذي بسنده عن مقدام بن معدي كرب قال : « سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، وإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه

(١) سورة الأعراف الآيات (٣١ ـ ٣٣) .

وثلث لنفسه . »[1] .

وهـذهالتوجيهـات فيهـا مراعـاة الـروح وجعلهـا عنصـراً ذا قيمة يسمو بـالبدن ويـرتفع بـه عن البهيمية ، ففي أنـواع العبادة كلهـا حياتهـا فهي غـذاؤهـا ونماؤها ، كـما أنها لا تخلو من جـانب جسـدي في غالبهـا ، ولأهميـة هـذا الاعتـدال في تحقيق الإنسـان رسالته في الحياة جاء الوحـي ببيان الـطريق الصحيح في هـذا قال تعـالى حاكيـاً قول قـوم موسى لقـارون : ﴿ **وابتـغ فيـما آتـاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيـا وأحسن كما أحسن الله إلـيـك ولا تـبـغِ الـفـسـاد في الأرض إنّ الله لا يحـب المفسدين** ﴾[2] .

وروى البخـاري بسنـده عن أنس بن مـالـك ـ رضي الله عنه ـ قال : « جاء ثلاثـة رهط إلى بيوت أزواج النبي ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ يسألـون عن عبادة النبي ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ فلما أخبـروا كأنهم تقـالوهـا فقالـوا : وأين نحن من النبي ـ صلى الله عليـه وسلم ـ قد غفـر له مـا تقدم من ذنبـه ومـا تأخر ، قـال أحدهم ،أما أنـا فإني أصـلي الليل أبـداً ، وقـال آخـر أنـا أصـوم الـدهر ولا أفـطر ، وقال آخـر : أنـا أعتـزل النسـاء فـلا أتـزوج أبـداً ، فجاء رسـول الله ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ فقـال : أنتم

---

(١) سنن الترمـذي كتـاب الـزهـد ، بـاب مـا جـاء في كـراهيـة كثـرة الأكـل ٤ / ٥٩٠ ، وقـال أبـو عيسى : « هـذا حـديث حسن صحيـح » . وانـظر مسند الإمام أحمد ٤ /١٣٢ .

(٢) سورة القصص آية (٧٧) .

الذين قلتم كذاوكذا ،أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني »[1] .

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية في هذا المعنى كثيرة جداً ، وفيها الدلالة على أهمية الاعتدال في تنمية الروح والبدن وكونه من التكليف لما في العدول عنه من تغير الهدف الذي خلق الخلق له فكانت سنة الهادي البشير ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى ذلك التوازن ،لأن فيه يتحقق القوة الحسية والمعنوية ولا بد لأحدهما من الآخر .

ولأهمية العقيدة في تربية الأمة طالت دعوة الهادي البشير ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى غرسها وترسيخها في النفوس أول الأمر ففي العهد المكي ـ ثلاثة عشر عاماً ـ كانت الدعوة إلى تحقيق العبادة لله وحده ، ونبذ عبادة ما سواه والعمل على ما يقوي هذا الجانب ، واستمرت الدعوة إليها ملازمة الدعوة إلى الشريعة طيلة نزول الوحي على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وما ذلك إلا لأنها الأصل في كل عمل وهي المؤثر

---

(١) صحيح الإمام البخاري : كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ٧ /٢ ، وانظر : صحيح الإمام مسلم : كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح ، ٢ /١٠٢٠ ، سنن النسائي كتاب النكاح ، باب النهي عن التبتل ٦ /٦٠ ، وسنن الترمذي : كتاب النكاح : باب النهي عن التبتل ٢ /١٣٣ ، مسند الإمام أحمد : ٢ /١٥٨ ، ٣ /٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥ ، ٥ /٤٠٩ .

الأساسي في حسنه وقوته ، فالتعليمات إذا نبع تطبيقها من عقائد النفوس كان رقيبها الذات ، وإذا تحقق هذا جاءت الأعمال على وجه الكمال .

فالتربية عديمة الجذور تذوي بسرعة ، وتجتاحها أخف الرياح، وأقل الأمطار، كما أنّ البناء المقام على أرضية رخوة ينهار لأدنى عامل مضاد . وهذا مشاهد في كل تربية وتعليم بنيا على أمورٍ باطلة، أوغيرملائمة للإنسان في تكوينه، لصدورها ممن لا يعلم حقيقة هذا المخلوق المتميز عن سائر الخلق . لكن من يتربى تربية صحيحة تخالط كيانه ، وتطابق فطرته ،وتوافق عقله الصريح ، تظهر قوته بصورة لا تقارن بقواه المادية . يشير إلى هذا قوله تعالى : ﴿ **إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنّه كان ظلوماً جهولاً** ﴾[1] . الإنسان حامل الأمانة هو المخلوق المبتلى أيُّه أحسن عملاً كما قال تعالى: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾[2] . وحسن العمل في الإخلاص والاتباع وبهما تظهر قيمة الحياة، ويعمر الكون يقول تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[3] . فالحياة الطيبة، وحصول الثواب هما نتيجة لأداء الأمانة على الوجه الصحيح ، وقد جعل الحكيم

---

(١) سورة الأحزاب آية (٧٢) .

(٢) سورة هود آية (٧) ، سورة الملك آية (٢) .

(٣) سورة النحل آية (٩٧) .

العليم في هـذا المخلوق ـ إذا استقـام عـلى الـطريق الــذي أمـره تعـالى به ـ تلك القـدرة على مـا لا تستطيعـه الجمادات الضخمـة وما ذاك إلا نتيجة استشعار العظمـة الإلهية، ووقـورهـا في نفسـه ، الأمـر الـذي تهـون بمقـابله كـل القـوى حتى لـو أتت عـلى حيـاة البدن ، صورة هذا يحكيها موقف سحرة فـرعون وهم من جـاؤوا معادين لموسى ـ عليـه السلام ـ ومنـاصرين لفـرعون ـ لعنـه الله ـ وفي الـوقت نفسه حـين وقر في نفـوسهم صدق مـوسى ،وأن ما أتى به من عند الله ـ تعالى ـ قالـوا ما حكـاه الله ـ تعالى ـ عنهم ، من الاستهـانة بـأي عقوبـة بـدنيـة ؛ لأن صـدق البينـة أزال مـا عـلى قلوبهم من الأدران فملأ صفاؤها تلك الأجسام التي طـالما كـانت السيطرة لها ، وقد جاءت لهذا الموقف طـالبة تحقيق الأجـر مقابـل الغلبة على موسى وهارون ـ عليهـما السلام ـ لكن الحـالة تغيـرت تبعـاً لتغير الحـال ، فإنّ حضـور أولئك السحـرة كـان طمعـاً في تحقيق رغبة بدنية محدودة من متع الحياة الـدنيا ، وهم قـد سمعوا دعوة موسى وهـارون ـ عليهما السـلام ـ إلى الإيمان بـالله ـ تعالى ـ صـاحب الفضـل والإنعـام مجـازي من أتـاه مؤمنـاً قـد عمـل الصـالحـات بـالثـواب الأبـدي في جنـات عـدن يقـول تعـالى :

﴿ وألقِ ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنّما صنعوا كيـد ساحـر ولا يفلح الساحر حيث أتى ، فألقى السحرة سجـداً قالـوا آمنا بـرب هـارون وموسى ، قـال آمنتم له قبـل أن آذن لكم إنّـه لكبيـركم الـذي علمكم السحر فـلأقـطعن أيـديكم وأرجلكم من خـلاف ولأصلبنكم في جـذوع النخل ولتعلمن أينـا أشد عـذاباً وأبقى ، قالوا لن نؤثرك على مـا جاءنـا من البينات والـذي فطرنـا فآقضِ

ما أنت قاضٍ إنّما تقضي هذه الحياة الدنيا ، إنّا آمّنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾[1] . الآيات[2] .

وموقف آخر من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل عزم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قتال المشركين من قريش في بدر حين أراد استطلاع موقف الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ وهم من لم ينالهم أذى مشركي مكة كالمهاجرين ، ثم إنّ جملتهم حديثوا عهد بالإسلام بالنسبة للمهاجرين ، كما أنهم لم يبايعوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يخرجوا معه للقتال وطلب العدو ، وإنما بايعهم على أن يمنعوه ممن يقصده[3] . لكن سعد بن عبادة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ جلى موقفهم من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يفصح عن تأثير التربية الإسلامية التي غرسها المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ في نفوسهم بما يؤكد أنهم لا ينحرفون عن أي مسير ساره قائدهم ولا يحيدون عن أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهما كان ، روى مسلم بسنده عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان . قال : فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه . فقام سعد بن

---

(١) سورة طه الآيات (٦٩ ـ ٧٣) .

(٢) من سورة طه من آية (٧٤ ـ ٧٦) .

(٣) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم : ١٢ / ١٢٤ .

عبادة فقال : إيانا تريد ؟ يا رسول الله ! والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها . ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا[1] . قال : فندب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس . فانطلقوا حتى نزلوا بدراً . . . الحديث »[2] .

تلك صورتان من مواقف المؤمنين من أتباع الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أما مواقف الأنبياء واحتمالهم ما يلاقيهم في سبيل دينهم ودعوتهم ، فهي فوق كل التصورات المادية ، وما ذاك ، إلا نتيجة ما وقر في قلوبهم من معرفة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصدق وعده .

(١) المعنى : أننا لن نخالف أمرك حتى لو أمرتنا أن ندخل على الخيل في البحر ، أو أن نتجه بها إلى أي مكان مهما بعد وهو ما كنى عنه بـ (برك الغماد) قال صاحب معجم البلدان : « برك الغماد : بكسر الغين المعجمة ، وقال ابن دريد : بالضم والكسر أشهر ، وهوموضع وراء مكة بخمس ليالٍ ، مما يلي البحر وقيل : بلد باليمن » ، ١ /٣٩٩ ، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٢ /١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) صحيح الإمام مسلم كتاب الجهاد . باب غزوة بدر ٣ /١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ومسند الإمام أحمد ٣ /٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

الفصل الرابع : العلم والعمل تربية الإنسانية

الإنسان مخلوق اجتماعي ، ومفطور على أن لا يعيش إلاّ كذلك ، ولا يخرج عن هذه الحالة إلاَّ من شذ ، ومن أجل اشتداد حاجته إلى المجتمع ،وهبه الله القدرة على تصوير المعاني في عبارات ، وجعل لسانه قادراً على التعبير عنها بقوة النطق ، ومع هذه الصفة التي فطر عليها لم يلهمه الله - تعالى - تحقيقها وسلوك طريق تطبيقها والحفاظ عليها ذاتياً كما ألهم سائر الحيوانات التي فطرت على حياة اجتماعية كذلك ، كالنمل ، والنحل مّما ألهم ما يصلح لحياته ،وحفظ نوعه[1] . وهذا - بلا شك - قصورٌ في جنس هذا المخلوق عن جنس تلك الحيوانات ، لو ترك الإنسان وحالته تلك . لكن لم يكن ذلك ، حكمة منه تبارك وتعالى متعلقة بأمر الابتلاء كما قال - سبحانه - ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾[2] . وقال : ﴿ وما خلقت

(١) انظر : مقدمة ابن خلدون ص ٤١ - ٤٤ ، رسالة التوحيد لمحمد عبده ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) سورة هود آية (٧) ، سورة الملك آية (٢) .

الجن والإنس إلاَّ ليعبدون ﴾[1] . والابتلاء والامتحان مادته العبودية اعتقاداً وعملاً لله ـ تعالى ـ أو لغيره، وحسن العمل بالإخلاص والمتابعة ، ولكي يتحقق الإخلاص فلا بد من الإيمان ، وبه تنتظم الأمور ويحسن العمل لكونه رقيباً ملازماً يحث على العمل رغبة ورجاء ، نتيجة لقناعته ببراهينه ولتصديقه بمبادئه وأحكامه، واليقين بأنها الطريق المؤدي إلى الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة ، ولكي تتحقق المتابعة فلا بد من الإيمان بكل الأمور التي جاء بها الهادي البشير ـ عليه الصلاة والسلام ـ وامتثالها اعتقاداً وعملاً . ولمّا كانت تلك الأمور اللازمة لهذا الإنسان المستخلف في هذه الأرض ، لا تنال فطرة لتعلقها بأمر التكليف ، زوده من كلفه ـ خالقه تبارك وتعالى ـ بالعقل وجعله مناط تكليفه ، كما وهبه قدرة وإرادة يختار ويفعل ـ بما وهبه الله ـ تعالى ـ من القوى الخير والشر ، وجعل العليم الحكيم تعامل الإنسان مع كل ما حوله في هذا الكون مما خلقه له ـ قال تعالى : **﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾**[2] ـ في أطر رسمها له إن هو التزمها نال السعادة في الدنيا والآخرة ، وإنْ جانبها كلاً، أوجزءاً نال من الشقاء في الدارين بحسبه قال سبحانه وتعالى : **﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**[3] . وقال : **﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم**

---

(١) سورة الذاريات آية (٥٦) .

(٢) سورة البقرة آية (٢٩) .

(٣) سورة البقرة آية (٣٨) .

لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير ﴾[2] . أي أنّ الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يترك أمة إلاّ وأبلغها ما فيه هدايتها واستقامتها ، وذلك بغرس العقيدة الصحيحة في ضمائرها ، والمحافظة على ذلك وتنميته بالشرائع التعبدية العملية ممّا يكفل لكل أمة حياة آمنة مستقرة ، وعيشاً هنيئاً في دنياها ، وفلاحاً في آخرتها ، إن التزمت بتلك التوجيهات الربانية التي هي الهدى من الله ـ تعالى ـ وذلك بالتطبيق لما يأتي وحياً من الله كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين ﴾[4] .

ولا يحصل الإخراج من الظلمات إلى النور إلاّ بتعليمهم

---

(١) سورة طه الآيتان (١٢٣ ، ١٢٤) .

(٢) سورة فاطر الآية (٢٤) .

(٣) سورة الشورى الآيتان (٥٢ ، ٥٣) .

(٤) سورة الجمعة آية (٢) .

الهدى من ربهم ، وبتعريفهم بـأسمائـه وصفاتـه ، وما يوصل إلى رضـاه ، وليس ذلـك إلاَّ بـالعمـل بمقتضى تلك التوجيهات ، وسلوك ما تدل عليه من دلالات تربوية ،هي الهدف السامي من علمها، والإيمان بهـا، وهذا هـو الامتثال، وهـو ثمرة العلم بهـا نظرياً ، وهو الوجه المشرق في الحياة البشريـة . فسعادة الإنسـانية لا تنال إلا بالعلم وبه تميزت عن سـائر المخلوقـات ، وهو طـريق كمـالها ، كـما أنه الأسـاس الذي عليـه تستـطيـع القيـام بعمـارة الكـون ونهضته التي كلفت بهـا ، وما ذكـره الله ـ تبارك وتعـالى ـ في شأن خلق بني آدم صريـح الدلالـة في بيان ذلـك ـ قال تعـالى لـلائكتـه ـ عليهم السـلام ـ : ﴿ وإذ قـال ربـك للمـلائكـة إني جـاعـلٌ في الأرض خليفـة قـالـوا أتجعـل فيهـا من يفسـد فيهـا ويسفـك الدمـاء ونحن نسبح بحمـدك ونقـدس لـك . قـال إني أعلم مـا لا تعلمون . وعلم آدم الأسـماء كلها ثم عـرضهم عـلى المـلائكة فقـال أنبئوني بـأسـماء هؤلاء إن كنتم صـادقـين . قـالـوا سبحـانك لا علم لنـا إلاَّ مـا علمتنـا إنـك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبـأهم بأسمـائهم قال : ألم أقـل لكم إني أعلم غيب السمـوات والأرض وأعلم مـا تبـدون ومـا كنتم تكتمـون ﴾[1] . فجعل سبحـانه وتعـالى في علمه كمـاله ، ولم يكن ذلـك العلم إلهامـاً في تكـوينـه بـل كـان تعليـماً من ربـه تبـارك وتعالى ـ وكـأن الملائكـة ـ عليهم السلام ـ يعلمـون أن من يعيش في هذه الأرض لا ينفك من تلك النـوازع التي ذكروهـا .

---

(١) سورة البقرة الآيات (٣٠ ـ ٣٣) .

نتيجة للخلود إلى الأرض وإيثاراً للرغبات المادية فيها ، فنفى تبارك وتعالى حكمهم المبني على محدود علمهم ، ورأوا برهان نقض حكمهم على آدم ـ عليه السلام ـ بتعلمه ما علمه الله ـ تعالى ـ وأدركوا أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد هيأ هذا المخلوق الذي سيكون خليفة في الأرض ليتعلم وبالعلم يرتقي عن الضلال والإفساد في الأرض، ما بقي متبعاً هدى خالقه سبحانه كما قال : ﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[1] . وقد تولى سبحانه وتعالى هؤلاء المستخلفين فلم يترك أمة إلا أرسل فيها معلماً داعياً إلى الهدى والرشاد ـ قال ـ تعالى ـ : ﴿ **وإن من أمة إلاَّ خلا فيها نذير** ﴾[2] . حيث إن البشرية لا ترتقي عن الفساد ، ولا تسلك طرق الرشاد إلاَّ في حالة اتصالها بربها ، وتاريخ الحياة البشرية على الأرض صورة حية لمسها من رآها ، ومن سمع عنها ، فالجاهليات التي تحدث في الأمم كلها ، على مر العصور ، كانت في فترات من الرسل وفي حالة ابتعاد البشر عن هدى أنبيائهم . ولله في خلقه شؤون .

وبأدنى نظرة إلى ديننا ندرك اهتمامه البالغ بالعلم ، ودعوته الملحة إلى طلبه، ومدح العالمين ، وتفضيلهم على غير العالمين ، ولقد علم الله ـ تعالى ـ الإنسان بالقلم ، والتعليم

---

(١) سورة البقرة آية (٣٨) .

(٢) سورة فاطر آية (٢٤) .

ميزة تميز بها الإنسان ، وحصوله بوساطة القلم ، ميزة أخرى تجعل تحصيل العلم أسهل ، وأوسع انتشاراً ، وتدوين العلم سبب قوي جداً في بناء الحضارات على وجه الأرض ، وعمارتها بالإفادة من أفكار السابقين ، وتلافي أخطائهم وبهذا يحصل التقدم المبني على حصيلة الأفكار ، وبدون القلم تنتهي الآراء مع أصحابها غالباً ، وينحسر التقدم ، ويقع المتأخر في أخطاء المتقدمين ، وأول آيات نزلت على رسولنا وقائدنا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تجسد هذا المعنى . قال تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم** ﴾[1] .

وهذه الآيات بداية النور والفلاح لهذه الأمة ، فيها التوجيه الرباني للتعلم ، وقيمة العلم في معرفة طريق الهدى ، يقول الإمام ابن كثير : « فأول شيء من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ، وهنَّ أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرمه ـ تعالى ـ أن علّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذي أمتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان ، ذهني ولفظي ورسمي ، والرسمي يستلزمهما من غير عكس »[2] . وقول الله ـ

(١) سورة العلق الآيات (١ ـ ٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٨ / ٤٥٩ .

تعـالى ـ آمـراً نبيـه بـطلب الازديـاد من العلم ﴿ **وقـل ربِّ زدني علماً** ﴾[1] . واضـح الدلالـة في فضل العلم ، لأن الله ـ تعـالى ـ لم يأمر نبيه ـ صلى الله عليـه وسلم ـ بطلب الازديـاد من شيء إلاَّ من العلم[2] . وقـال تعـالى : ﴿ **هـل يستـوي الـذين يعلمـون والـذين لا يعلمـون** ﴾[3] ، وقـال الـرسـول ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ : « طلب العلم فـريضـة عـلى كـلِّ مسلم »[4] . وروى أبـو داود بسنده عن أبي الـدرداء قـال : إنِّي سمعت رسـول الله ـ صـلى الله عليه وسلم ـ يقـول : « من سلك طـريقـاً يـطلب فيـه علماً سلك الله بـه طريقـاً من طرق الجنـة ، وإنَّ الملائكـة لتضـع أجنحتهـا رضـاً لـطالب العلم ، وإن العـالم ليستغفـر لـه من في السمـوات ومن في الأرض والحيتان في جـوف المـاء ، وإن فضـل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البـدر على سـائر الكـواكب ، وإن العلماء ورثـة الأنبيـاء ، وإن الأنبيـاء لم يـورثـوا دينـاراً ولا

---

(١) سورة طه آية (١١٤) .

(٢) انظر : فتح الباري لابن حجر ، ١ /١٤١ .

(٣) سورة الزمر : آية (٩) .

(٤) انـظر : سنن ابن ماجـة المقـدمـة ، بـاب فضـل العلماء والحث عـلى طلب العلم ١ /٨١ ، وجـامع بيـان العلم وفضله لابن عبـد البـر ١ /٧ ـ ١٠ ، وذكره الكمشخـانـوي في راموز الأحـاديث وذكر أنـه خرجـه : ابن عدي في الكامل ، والبيهقي في شعب الإيمـان ، والخطيب في تـاريخه ، وابن عسـاكر في تـاريخه ، والـطبراني في الكبـير ، وفي الأوسط ، وأبـو داود الـطيـالسي ، وسعيد بن منصور . عن أنس وعلي وغيرهما .

درهماً ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[1] .

ما أشرت إليه من النصوص في منزلة العلم جزء يسير جداً مما ورد في شأنه ، ثم إن العلم ذا الشأن العظيم بالنسبة لنا ليس هدفاً لذاته ـ مع سموه وعلو شأنه ـ إنما لكونه آلة العمل ، قال بعض الحكماء : « العلم خادم العمل ، والعمل غاية العلم ، فلولا العمل لم يطلب علم ، ولولا العلم لم يطلب عمل »[2] ، والعلم شرط في صحة القول والعمل[3] . وقد جاء الأمر بالعلم ومدح العاملين في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة بآياتٍ ، وأحاديثٍ كثيرة جداً يطول المقام بذكرها كلها .

منها قوله تعالى : ﴿ فاعلم أنّه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك ﴾[4] ، قال الإمام البخاري : « باب العلم قبل القول والعمل لقول الله ـ تعالى ﴿ فاعلم أنّه لا إله إلاّ الله ﴾[5]

(١) سنن أبي داود كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم ٣ /٣١٧ ، وسنن ابن ماجة المقدمة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ١ /٨١ ، وسنن الترمذي كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه والعبادة ٥ /٤٨ ، ٤٩ . وانظره : عنده أيضاً في كتاب القراءات باب (١٢) ٥ /١٩٥ ، ١٩٦ ، والحاكم في المستدرك كتاب العلم ١ /٨٨ ، ٨٩ ، وقال : هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . ورواه الإمام أحمد في المسند ٢ /٢٥٢ ، ٣٢٥ ، ٤٠٧ .

(٢) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ١٥ .

(٣) انظر فتح الباري (١ /١٦٠ .

(٤) سورة محمد آية (١٩) .

(٥) سورة محمد آية (١٩) .

فبدأ بالعلم »[1] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾[2] . أي أن كفر الإنسان بربه ، وجهله بما خلق لأجله يعد موتاً ، وأن الحياة هي باتباع النور الذي يرسله الله ـ تعالى ـ لخلقه وهو سبيل النجاة ، وليس في علمه فقط ، بل بامتثاله ، وهو الغاية المطلوبة ، يوضح هذا ما في قوله تعالى : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم** ﴾[3] .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **ويوم نبعث في كل أمةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾[4] . فما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشرى للمنقادين لهداه الممتثلين لأوامره المنتهين عن نواهيه ، وهم المسلمون ، يقول تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله**

(١) الصحيح كتاب العلم ١ /٣٦ .
(٢) سورة الأنعام آية (١٢٢) .
(٣) سورة المائدة الآيتان (١٥ ، ١٦) .
(٤) سورة النحل آية (٨٩) .

كثيراً ﴾[1] . فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الأسوة لأمته وهو مثلهم الأعلى ، وهو الصورة التطبيقية لما يتلقاه من الهدى الرباني ؛ لما روى الإمام مسلم في صحيحه : أن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : « إن خُلقَ نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان القرآن »[2] . وقال الإمام النووي في شرح هذا : « معناه العمل به ، والوقوف عند حدوده ،أو التأدب بآدابه ، والاعتبار بأمثاله ، وقصصه ، وتدبره وحسن تلاوته »[3] . وفعله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ سنة تتبع ومنهج يحتذى .

ومنها قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه البخاري بسنده عن أبي موسى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب أرضاً فكان منها نقية ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب ، أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت منها طائفة أخرى، إنّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ،ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت

---

(١) سورة الأحزاب آية (٢١) .

(٢) صحيح الإمام مسلم : كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه، أو مرض ١/٥١٣، ٥١٤.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٦ /٢٦ .

به »[1] .

وإن في هذا المثال الـذي ضربـه معلم هذه الأمـة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لصورة جليـة لمن وفقـه الله ـ تعالى ـ لفقههـا ، فـما جاء بـه من العلم كالغيث كـما قال ، وهـو في ذاتـه نـافـع ، لكن اختلفت حـالـه بحسب القـوابل ، وتحـدد نفعـه وثمـرتـه بالعمل .

ولم يكن الحث عـلى العلم وطلبـه ، ومـدح أهله إلاّ لأن العلم آلة العمل ، والعلم بـلا عمل أشبـه بشجرة الـزينة التي لا تثمـر ، وليس لها رائحـة طيبة نفعهـا لا يتجـاوز الـرؤيـة . والله أعلم .

(١) صحيـح الإمـام البخـاري كتـاب العلم ، بـاب فضـل من علم وعلّم : ١ / ٣٠ .وصحيح الإمام مسلم : كتـاب الفضائـل ، بـاب بيـان مثـل ما بعث النبي ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ من الهـدي والعلم : ٤ /١٧٨٧ ، ١٧٨٨ ، وانظر : مسند الإمام أحمد : ٤ /٣٩٩ .



الفصل الخامس : أمثلة من أخطاء بعض التربويين ونقدها

الإنسان مخلوق تميز عن غيره في قوامه وعقله ، خلقه الله ـ تعالى ـ في أحسن تقويم ، وزوده بالعقل الذي هو مصدر قُوّتِهِ وهيمنته على كثيرٍ من المخلوقات ، وهو أداة تسخير أشياء كثيرة مما جعلها الله في هذا الكون ، فهو يسمو ويتعاظم كثيراً إذا ما رأى تميزه وسيطرته المثمرة ـ غالباً ـ في هذه الحياة لكن سرعان ما يتبدد ذاك الشعور ويضمحل التعاظم ،إذا ما وقف حائراً أمام عارض لم يفهم سببه ، ولم يعرف صفته ، نتيجة تساؤلات نفسية تلح عليه من دافع فطري ،به استشعر استمرارية حياة الروح ، مع ما يؤيد ذلك من مؤثرات كثيرة ، سواء من الرغبات الموجودة في الإنسان ، أو من حال المجتمع وعلاقات بعضه ببعض . لكن الخالق الحكيم واهب النعم العظيمة لهذا المخلوق لم يضن عليه بما يشبع رغباته ، ويزيل عنه وطأت الهوان ، ومرارة الذلة ، التي استشعرها نتيجة عجزه

عن معـرفة تلك الجـوانب المهمة التي تعـرض لـه ، حتى ينعم في حيـاتـه ، فكمله وسـد نقصـه من طـريق تَمَيُّزِه عن غيـره ، - الإدراك والتعلم - فـأرسـل إليـه الرسل ، جعلهم وسيلة قيـادتـه وبأقوالهم ، وأفعالهم رسم منهجـه وسيـرتـه في الحيـاة ، هم أداة كمـاله بمـا يتلقونـه من وحي الله - تعالى - الـذي به وَحْـدَهُ تربيـة الأرواح والأبدان ، وهم صورته المعبرة وبمنهجهم إخراج البشرية من الظلمات إلى النـور ، وفي البعد عنـه تخبط في شؤون الحياة ، وضلال بحسب القرب ، أو البعد عنه . وبعد :

فلقـد أطلعت عـلى كتـاب : « اتجـاهـات التـربيـة عبر العصور - دراسة تحليلية مقارنة »[1] - بعد تساؤلات عديـدة ممن دُرِّس لهم هـذا الكتـاب - فـآلمني كثيـراً أن يكـون هـذا المنحى الفكـري المبني في جله على أفكـار المحاربـين للأديـان عامـة ، أو للدين الحق خـاصة ، رائجـاً بـين بعض المثقفـين المسلمـين حتى مـع وضـوح مصـادمتـه نصـوص كتـابهم العـزيـز ، وسنـة نبيهم الصـادق الأمين - عليـه أفضل الصـلاة وأزكى التسليم - ، حيث وجدت أموراً كثيرة تخالف مـا يجب اعتقاده ، مـع ظهور الصبغـة القومية في كثيـر من موضـوعاتـه ، والتساهـل في استنتاجـاته[2] فكـان لزامـاً عليَّ بعـد هذا ، التنبيـه على مـا رأيته مخـالفاً عقيـدة المسلمين .

---

(١) من تأليف الدكتـور : عرفـات عبد العـزيز سليمـان - في طبعته الأولى سنـة ١٩٧٧ م .

(٢) انـظر ص : ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ . فقـد ذكـر أمـوراً أبـرزهـا في صور الحقائق وقد بنيت على أمور تخمينية .

أولاً ـ مسألة التدين :

١ ـ قال : « . . . والإنسان منذ وجوده على ظهر الأرض ، وهو دائم البحث عن معبود ، يشعر نحوه بالولاء والتقديس مهما كان على أي صورة هذا المعبود فهو يشعر تجاهه بالقهر ، أو الحب ، أو الرهبة ، أو القربى ، والاستجابة ، ومن ثم تكون عقيدته وولاؤه ، وقد التمس ذلك تارة في الشمس التي تضيء له نهاره ، وتارة في القمر الذي ينير له ليله . . . كما اتجه إلى الطبيعة حوله متخذاً من بعض منها ، اشتملت عليه آلهة يعبدها ويقدم لها القرابين تقرباً منها أو خشية بأسها (كما حدث في عصور الفراعنة) . . . إلى أن يقول : حتى إذا ظهرت الديانات السماوية الداعية إلى وحدانية خالق الكون اتجه الإنسان إلى عبادة الله وحده متقرباً إليه بالعمل الصالح مؤتمراً بأوامره ، ومنتهياً بنواهيه ، واتخذ الدين نبراساً يهديه في حياته الدنيا ويرسم له سلوكه فيها وينظم تعامله مع غيره »[١] .

٢ ـ وقال في الحديث عن تاريخ التربية ، وتحت عنوان : العوامل الدينية « ونعني بها الاتجاهات الدينية ، والمعتقدات التي يعتنقها أفراد المجتمع وما يمارسونه من طقوس ، وما وقر في نفوسهم من إيمان ، وما تغلغل في وجدانهم من عقائد ، وما يقدسونه من آلهة ، ومعبودات في العصور

---

(١) ص : ١٠ من كتاب اتجاهات التربية عبر العصور .

القديمة ثم ظهور الديانات السماوية (المسيحية والإسلام) وأثر ذلك في طبيعة المجتمعات واتجاهات الشعوب »[1] .

٣ ـ وقال في حديثه عن اتجاهات التربية في المجتمع البدائي تحت عنوان : النواحي الاجتماعي : « . . وقد أحس الإنسان البدائي بأن خير الجماعة يتوقف على أداء كل فرد لواجباته ، وبأن على كل أعضاء العشيرة ، أو القبيلة أن يعملوا وفق مصالحها العامة ومن ثم تكونت في كل قبيلة قواعد معينة تتصل بأوجه النشاط الهامة في الحياة وتحدد واجبات الآباء نحو أبنائهم ، كما تحدد العلاقات بين الجنسين والاتجاهات نحو الملكية ، والولاء للكبار والقادة »[2] .

٤ ـ وقال تحت مبحث النواحي الدينية ـ ضمن اتجاهات التربية في المجتمع البدائي ـ : « أما من حيث النواحي الدينية ، فقد عبد الإنسان البدائي كثيراً من مظاهر الطبيعة حوله ومكوناتها من جماد ونبات وحيوان ومن ثم كان تحت رحمة العالم الطبيعي والحيواني . . . »[3] .

٥ ـ وقال في حديثه عن اتجاهات التربية في المجتمع الفرعوني ، تحت عنوان : ملامح المجتمع المصري القديم : « والحقيقة ، أن المتصفح لتاريخ مصر القديمة ، يجد أن

(١) ص : ٣١ الكتاب السابق .
(٢) ص : ٤٧ ، ٤٨ من الكتاب السابق .
(٣) ص ٤٨ من الكتاب السابق .

المصريين القدامى ـ على مر العصور ـ كانوا يؤمنون بالإله الواحد ، وإن تعددت صوره ، وكان من معتقداتهم أن للروح في العالم الآخر ميزاناً يقدر لها الحسنات والسيئات ، وكانت كلمة (الله) هي القوة التي تفعل ما تريد ، ولكنها لم تكن دعوة نبوة ورسالة ، ولعلها جاءت في زمن لم تتهيأ فيه النفوس للعلم بالوحدانية ، ونبذ الشرك وتعدد الأرباب ، وكانت في جملتها دعوة كهان ، يسترون ما يعلمون ، ولا يبوحون للناس بأسرار الديانة إلا بمقدار »[1] .

٦ ـ وقال في التحليل لاتجاهات التربية في المجتمعات القديمة ، تحت عنوان : « العقيدة في المجتمع المصري » : « ومن البديهيات المعروفة في حياة الناس ، أن أول ما يشغل العقل البشري ويحرك العواطف الإنسانية هو التفكير في الكون ، وفي القوى المسيطرة على هذا الكون ، وكيف تتحكم تلك القوى في الكائنات ، كما يحاول العقل تفسير مظاهر الطبيعة ، وفهم طبائع المخلوقات ، ثم التفكير في الموت وما وراءه . . . من كل أولئك نشأ ما يعرف بالعقيدة الدينية ، وما يشكل مظاهرها من شعائر وطقوس وأساطير ـ »[2] .

كما جاء أيضاً في ذلك الكتاب ما يوحي بتأخر الهدى عن الوجود البشري[3] .

---

(١) ص : ٥٨ من الكتاب السابق .

(٢) ص : ١٢٤ ، ١٢٥ . من الكتاب السابق .

(٣) انظر ص : ٥ ، ٩ ، ١١ ، ١٣٦ ، ١٣٧ من الكتاب السابق .

تلك النصوص التي نثرها المؤلف في كتابه تحمل مخالفات عقدية جمة في منطوقها ومفهومها ، وسأحاول بحول الله وقوته ذكر ما فيها من ذلك . ففي النص الأول :

١ ـ أنّ الإنسان حين وجد على ظهر الأرض لا يعرف معبوداً .

٢ ـ أنّ الإنسان سعى بجهده ، وعقله بحثاً عن معبود .

٣ ـ أن أول عبادة الإنسان كانت شركاً .

٤ ـ أنّ الديانات السماوية الداعية إلى التوحيد متأخرة عن وجود الإنسان على ظهر الأرض .

وفي النص الثاني :

ـ أنّ الديانات السماوية متأخرة عن الوجود البشري .

وفي النص الثالث :

ـ أنّ الإنسان تطور بأفكاره ذاتياً بناء على تجاربه وفكره دون توجيه رباني يتولى توجيهه وهدايته .

وفي النص الرابع :

ـ أنّ أصل عبادة الإنسان كانت شركاً[1] .

وفي النص الخامس :

١ ـ نفي كون ما عند المصريين القدماء من بقايا دين ؛ من آثار

(١) حيث يرى أن ما وجد في بعض الأمم من انحراف في العبادة هو الأصل . والحق أن الانحراف طارىء .

نبوة ، وإرجاع ذلك إلى السحرة .

٢ - أنّ أصل تكوين النفوس البشرية على الشرك .

وفي النص السادس :

- أن الإنسان وصل إلى التدين نتيجة تطور فكري مبني على المشاهدة والحس .

وعلى هذا فالمخالفات من مجموع النصوص السابقة هي :

١ ـ أنّ الإنسان وجد على ظهر الأرض وليس له عبادة .

٢ ـ أن العبادة وجدت نتيجة البحث عن معبود .

٣ أن أول عبادة الإنسان كانت شركاً .

٤ ـ تأخر الأديان السماوية الداعية إلى التوحيد بالنسبة للوجود البشري .

٥ ـ نفي كون ما وجد من آثار دين صحيح من قبل نبوة ، وإرجاع ذلك إلى المشعوذين والسحرة .

إن هذه المسائل التي رأيت مخالفتها لهدي الدين الإسلامي مما تضمنته النصوص السابق ذكرها عن كتاب : « اتجاهات التربية عبر العصور » ، أخطاء يقع فيها بعض الناس لكن تزداد الخطورة ويجلُّ الخطب حين تكون ممن يؤرخون للتربية ، ويمهدون لبناء الأفكار التربوية ، ووضع القواعد اللازمة لدراستها وتطبيقها ، وواجب المسلم التنبه والفطنة ،

فيكون ذا استقلالية فكرية وخاصة في مقابل مخالفيه في الدين ، حيث إن دراساتهم وأفكارهم مبنية على معتقداتهم المنحرفة في فهم وجود الإنسان وحياته ، فالإنسان في نظرهم كائن تطور عن غيره ، وهم الداروينيون القائلون كما قال الذين من قبلهم : نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر[1] . وعلى هذا فليس للتكليف معنى، ولا لحسن العمل قصد وراء الحياة الدنيا ، إذا كان كل ما وصل إليه البشر ذاتياً ، أو على أضعف الاحتمالات أن يكون ذلك حصل من غير قصدٍ وإرادة من الخالق ، أو طرأت إرادة التكليف والعبادة بعد خلقه الخلق ، فيكون أوجد الخلق أولا لغير حكمة ـ تعالى الله عن العبث .

ولشدة خطورة ما وقع فيه صاحب كتاب « اتجاهات التربية » من أمور تخالف معتقد المسلم لتضمنها :

١ ـ إما نفي كون آدم ـ عليه السلام ـ أبا البشر . أو لا . لكنّ حاله ما وصف من عدم معرفته المعبود ، ثم ذهب يلتمسه فتوجه إلى ما يراه من مظاهر الكون فخافها ثم عبدها ، ومضى على هذا أمم قبل ظهور الديانات السماوية الداعية إلى توحيد الله ـ تعالى ـ كما يزعمون .

٢ ـ أنّ من جاؤوا بعد آدم على، دين أتم منه ،وأكمل مما هوعليه، وهكذا يكون بحسب تعاقب الزمن .

---

(١) انظر في إسناد الخلق إلى الطبيعة عند داروين : حول التفسير الإسلامي للتاريخ لمحمد قطب ص ٢٧ . هامش .

وفي اعتقاد هذه الأمور تكذيب لله ـ تعالى ـ ولرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وإنني بعد هذا التنبيه سأذكر بعض الأدلة على صدق ما أراه ، مما هو مخالف لما نبهت عليه ، من غير استطراد في المسائل المنبه عليها من حيث هي ، فقد تكون تلك من المسائل الكبار التي يمكن أن تكون موضوع رسالة علمية ضخمة أو مؤلف كبير ، لكن الغرض لفت انتباه سالكي هذه الطرق ، وتنبيه الطلاب الذين تقع أنظارهم على هذه المسائل ، حتى تتربى لديهم الأصالة الفكرية المبنية على الهدف السامي من خلقهم ، وعيشهم على ظهر هذه الأرض ، وليتحقق الهدف المنشود من وجودهم ، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل .

وأرى حصول الرد على ما سبق من خلال تقرير الأمور التالية :

١ ـ إن أول البشر آدم عليه السلام .

٢ ـ إن التوحيد هو الأصل ، وإن الشرك طارىء .

٣ ـ إن الله ـ تعالى ـ لم يترك أمة بلا نذير .

الأمر الأول : خلق آدم ـ عليه السلام ـ :

ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ قصة خلق آدم ـ عليه السلام ـ في القرآن الكريم ، في أكثر من موضع . وأبان المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئاً من صفات أبي البشر ـ عليه السلام ـ .

قال الله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ الذين أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من طين ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصالٍ من حمإٍ مسنون ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصالٍ كالفخار ﴾[6] .

هذه الآيات ومثلها كثير مما جاء فيه ذكر خلق آدم ـ عليه السلام ـ من تراب ، ومن طين ، ومن صلصاال ، أي أن المادة التي خُلق منها أول الخليقة كانت التراب الذي بلّ وخُلط فصار طيناً لازباً ثم تُرك إلى أن أنتن ، وسوّى تبارك وتعالى هذا

(١) سورة آل عمران آية (٥٩) .
(٢) سورة الروم آية (٢٠) .
(٣) سورة السجدة آية (٧) .
(٤) سورة ص آية (٧١) .
(٥) سورة الحجر آية (٢٦) .
(٦) سورة الرحمن آية (١٤) .

الطين بيده الكريمة على الهيئة التي أرادها ، وبقيت مدة صلصالاً يشبه الفخار ، ونفخ الله ـ تعالى ـ فيه من روحه . فكانت الحياة والفضيلة الثانية بعد خلقه باليد . وقد أمر تعالى ملائكته الكرام بالسجود له بعد نفخه فيه من روحه ، وبهذا الفضيلة الثالثة . وكان امتثالهم جميعاً إلاَّ إبليس كما أخبر الله عن ذلك في سبعة مواضع من كتابه هي :

قوله تعالى : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس لم يكن من الساجدين﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاَّ إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾[3] .

وقال تعالى : وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ

---

(١) سورة البقرة آية (٣٤) .

(٢) سورة الأعراف آية (١١) .

(٣) سورة الحجر الآيات (٢٨ ـ ٣١) .

(٤) سورة الإسراء آية (٦١) .

إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾[1] .

وقال تعالى : **﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاَّ إبليس أبى ﴾**[2] .

وقال تعالى : **﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاَّ إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾**[3] .

وهذه الحالة التي تصورها الآيات ، من امتثال عباد الله الأبرارلأمرربهم بتكريم آدم ـ عليه السلام ـ بالسجود له ، حيث قد كرمه الله ـ تعالى ـ قبل ذلك بأن خلقه بيده ونفخ فيه من روحه . وإباء إبليس وتكبره وكفره ، مما يعطي دلالة واضحة على أنَّ هذا المخلوق غير مسبوق بخلق من نوعه ، فالخبر عن الخلق ، ومادته ، وشعور الملائكة نحوه ، وكذا إبليس مما يؤكد الجهل حيال نوعه .

ولا يصح ما قيل بأن آدم ـ عليه السلام ـ ليس أول هذا النوع من الخلق فيكون قد سبقه على العيش فوق سطح هذه الأرض خلقٌ من البشر وأفناهم الله ـ تعالى ـ لسببٍ من الأسباب . وقول الله تعالى : **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها**

---

(١) سورة الكهف آية (٥٠) .

(٢) سورة طه آية (١١٦) .

(٣) سورة ص الآيات (٧٢ ـ ٧٤) .

ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾[1] .

لم يفهم الخليفة ؛ أنه خليفة عن خلق من نوعه ، ولم يذهب أحد من المفسرين ـ فيما أعلم ـ إلى أنه خليفة عن إنسان سبق له العيش على وجه الأرض ، إنما قالوا : خليفة عن الجن ، أو الملائكة ، وقيل غير ذلك في المعنى[2] . ولا يصح القول: بأنه خليفة عن الله ـ تعالى ـ[3] .

وقول الملائكة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها . . . الآية** ﴾ قيل : إنهم علموا هذا الجواب من حال الجن الذين خلقهم الله ـ تعالى ـ قبل آدم ـ عليه السلام ـ . وعاشوا في الأرض وأكثروا فيها الفساد[3] .

ولعل الأقرب ـ والله أعلم ـ ما ذكره بعض المفسرين من أن في الآية حذفاً ، والمعنى إني جاعلٌ في الأرض خليفة يفعل

---

(١) سورة البقرة آية (٣٠) .

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري ١ /٦١ ، والتفسير الكبير للرازي ٢ /١٦٥ ، ١٦٦ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١ /٢٦٣ ، ٢٧٤ . وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ١ /١٤٠ ، ١٤١ . وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ /٩٩ـ١٠٢ .

(٣) انظر : منهاج السنة النبوية لابن تيمية ١ /١٣٧ ، ٣ /١٣١ ، ومقدمة ابن خلدون ص ١٩١ ، وبحث بعنوان : هل الإنسان خليفة عن الله في أرضه . ضمن مجلة كلية الدعوة وأصول الدين العدد الأول سنة ١٤٠٢ - ١٤٠٣ هـ بمكة المكرمة للأستاذ عبد الرحمن الميداني ص ٣١ ـ ٤٧ .

كذا وكذا[1] . ويؤيد هذا التفسير في نظري قول الملائكة حين سألهم الله ـ تبارك وتعالى ـ عن أسماء ما عرضه عليهم : ﴿ **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾[2] . أي أنهم لا يستقلون بعلمٍ شيء ولا يدركونه إلا بتعليم الله ـ تعالى ـ لهم . وإذا كان ما بهم من علمٍ ومن قدرة على العبادة . ومن فعل ما وُكِل إليهم هو من الله ـ تعالى ـ فما جعله فيهم يجعله في غيرهم ، أو يزيده ويميزه فهو القادر على كل شيء ، وكان ذلك للإنسان ، فقد وهبه الله ـ تعالى ـ قدرة التعلم ، وجعله طريق كماله وفضيلة من فضائله . قال تعالى : ﴿ **الرحمن علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان** ﴾[3] . فالعليم الحكيم الذي خلق الإنسان ليعيش على ظهر الأرض ويعمرها جعل فيه القدرة على إلحاق الأسماء بمسمياتها ، وتسمية الأشياء بما يلائمها في ذواتها وصفاتها وإدراك العلاقة بين موادها ، ومعانيها ، وهذه القدرة ليست في الملائكة المطبوعين على عبادة الله ـ تعالى ـ وطاعته في تأدية ما وكل إليهم من أعمال . فهو وضعٌ يخالف وضع السماء ، وطابعٌ يخالف طابع الملائكة . والله أعلم .

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ١٠٠ ، وبحث هل الإنسان خليفة عن الله في أرضه للأستاذ الميداني ص ٤١ ، ٤٢ . مجلة كلية الدعوة بمكة المكرمة العدد الأول .

(٢) سورة البقرة آية (٣٢) .

(٣) سورة الرحمن الآيات (١ ـ ٤) .

تلك النصوص القرآنية المتحدثة عن خلق آدم ـ عليه السلام ـ فيها الدلالة على أنه أول النوع الإنساني لما اشتملت عليه من الحديث عن مادته وصفة خلق الله ـ تعالى ـ له ، وذكر بعض صفاته ، وموقف الملائكة منه ، وعداء إبليس له ، وقد جاء النص القاطع في سورة النساء بأن الناس خلقوا من نفس واحدة قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[1] .

والآية صريحة في ذكر خلق الناس من نفس واحدة ، وهي آدم ـ عليه السلام ـ المتحدث عن خلقته في الآيات السابقات .

ومن الأحاديث المتحدثة عن خلق آدم ـ عليه السلام ـ ما رواه الإمام أبو داود بسنده عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر ، والأبيض ، والأسود ، وبين ذلك ، والسهل ، والحزن ، والخبيث ، والطيب »[2] .

(١) سورة النساء آية (١) .

(٢) سنن أبي داود كتاب السنة باب في القدر ٤ /٢٢٢ ، وسنن الإمام الترمذي كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة البقرة ٥ /٢٠٤ ، وفيه قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وانظر مسند الإمام أحمد ٤ /٤٠٠ ، ٤٠٦ .

وبعد تلك النصوص أقول لكل مسلم جرّته دراسته النظامية، أو ميوله الفردية، إلى التعلق بأفكار كثير ممن لا يؤمنون بالوحي وينظرون إلى الإنسان نظرة لا تليق بوضعه الذي ميزه الله - تعالى - به على سائر المخلوقات .

وليس لأي إنسان بعد بعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - وظهور دينه على سائر الأديان ، وختم الله - تعالى - به النبوة والكتاب ، وحفظ الله هذا الدين بحفظ القرآ ن الكريم ، وسنة سيد المرسلين من إحدى حالتين : إمّا مؤمن به ، ومصدق بما جاء به من عند الله - تعالى - وإما كافر به وبما جاء به .

وصاحب الحالة الأولى ، مقتضى إيمانه قبول كل ما جاء به هذا النبي من القرآن الكريم ، وما ثبت عنه من السنّة النبوية ، وتقديمهما على كل خبرٍ ، وخلاف هذا كفر ، أو ظلم ، أو فسق بحسب حال صاحبه ؛ من تكذيب للقرآن،أو للسنة ، أو تصديق لمخالفهما فيما ذكر فيهما ، أو في أحدهما ، أو أخذ به من غير ذلك .

وإن في الإصغاء إلى النظريات القائلة ، بأن الإنسان تطور عن غيره مخالفة لما ذكرته من الآيات القرآنية المخبرة عن خلق آدم - عليه السلام - ومخالفة لصريح السنّة المطهرة ، كحديث التربة - التي خلق منها آدم - السابق الذكر، وكالحديث الذي رواه الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه ، قال اذهب فسلم على أولئك النفر

من الملائكة جلوس فاستمع مايحيونك ؛فإنّها تحيتك ، وتحية ذريتك ، فقال :السلام عليكم فقالوا :السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه ،ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن »[1] .

وروى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف[2] عرف أنه خُلِق خلقاً لا يتمالك »[3] .

في الحديثين دلالة صريحة على أن آدم ـ عليه السلام ـ خلق في الجنة مكتمل البنية حتى قَبْل نفخ الروح فيه . وفي هذا قطع أي احتمال لقبول القول بنشوئه وارتقائه ، كما هو رأي

---

(١) صحيح الإمام البخاري كتاب الاستئذان ، باب بدء السلام ٨ /٦٢ ، وصحيح الإمام مسلم : كتاب الجنة وصفة نعيمها . . ، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ٤ /٢١٨٣ ، ٢١٨٤ ، وانظر : مسند الإمام أحمد ٢ /٣١٥ ، ٣٢٣ ، وكتاب التوحيد لابن خزيمة ص ٤٠ ، والأسماء والصفات للبيهقي ص ٢٨٩ .

(٢) الأجوف : صاحب الجوف ، وقيل : هو الذي داخله خالٍ . ومعنى لا يتمالك : لا يملك نفسه عن الشهوات ، أو عند الغضب ، أو عن دفع الوسواس . والمراد جنس بني آدم . انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ١٦ /١٦٤ .

(٣) صحيح الإمام مسلم : كتاب البر والصلة والآداب، باب خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك ٤ /٢٠١٦ .

الداروننيين[1] . وفي الحـديث الأول إبطال هـذا صراحـة وإثبات عكسه ، وهـو تنـاقص الخلق بعـده ، وفي الإعــراض عن هـذه النصــوص ، أو تغـافلهـا ، وتتبـع المـعلومـات عـن طـريق الحفـريـات ، واستنـطاق الصـور ، ومخاطبـة الـرمم ، وفـرض الاحتمـالات ، واعتقاد تلك الأوهـام ، حقائق مما يَكْفُـر المسلم بتصديقه حمانا اللهوجميع المسلمين من الانحراف .

وأمـا صـاحب الحـال الثـانيـة فعليـه واجب النـطق بالشهادتين، إذ إنّ حال الكفر تكذيباً بالنبوة مطلقـاً، بنبوة محمد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ أعظم من تكـذيب ما دون ذلـك من مستلزمات الإيمـان بالنبـوة ، مع أنّـه قد يبلغ المكـذب بأمورٍ جـزئية من الكفـر ما يبلغـه المكذب مـطلقاً ؛ بحسب نـوع تكذيبه ، وما يصاحبه من الاعتقاد ، والله أعلم .

الأمر الثاني : إن التوحيد هو الأصل :

قبـل تقريـر طروء الشـرك على البشرية ، أحب أن أُشـير إلى أشهـر مسـالـك البـاحثـين في مسـألـة نشـأة التـدين في الـوجـود الإنساني ، ومذاهبهم في ذلك فأقول :

إنّ الطريق الذي يسلكه جمهور الباحثين للوصـول إلى هذا المـطلب هو التنقيب عن أديـان الأمم القـديمـة ، أو أديـان الأمم

---

(١) انـظر : في نقـد نـظريـة دارون : العقيـدة في الله لعمـر الأشقـر ص ٧١ ـ ٨٠ ، وكـواشف زيوف لـلأستاذ عبـد الـرحمن الميـداني ص ٣٢١ ـ ٣٢٣ ، وكتاب ما أصل الإنسان للدكتور موريس بوكاي ص ٤٨ ـ ٩٦ .

المعاصرة غير المتحضرة ، ويعتبر هؤلاء نهاية ما يعلمونه في القدم من أديان البشر ، وما عليه الأمم الأشد تخلفاً من ممارسات دينية صورة مطابقة لما كان عليه الإنسان الأول ! .

ومصادر هؤلاء في إثبات آرائهم - بالنسبة للأديان القديمة - النقوش والرمم التي يستوحون منها ما يزعمونه قطعياً ، ولما كانت تلك مصادرهم اختلفت آراؤهم .

فذهب فريقٌ ، إلى أن الدين بدأ بصورة الخرافة ، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد . كما تدرج في علومه وصناعاته حتى زعم بعضهم أن عقيدة « الإله الأحد » عقيدة حديثة ، وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي ، ونادى بهذه النظرية أنصار المذهب التطوري ، الذي ساد في أوروبا في القرن التاسع عشر في أكثر من فرع من فروع العلم .

وذهب فريقٌ آخر إلى القول : بفطرية التوحيد وأصالته ، وأثبتوا ، أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشرية .

وقد رد أنصار هذا المذهب على القائلين بالمذهب التطوري مع أن مسالكهما في الوصول إلى تحديد بداية الدين واحدة ، وهو دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة[1] .

---

(١) انظر : الدين للدكتور محمد عبدالله دراز ص ١١٢ ، ١١٣ .

وبالنظر إلى مسالك القـوم في إثبات العقيـدة الدينية ، يتبين خطأها ، من حيث الغايـة ، والـوسيلة ، يقول الـدكتور محمـد عبدالله دراز : « أمـا من حيث الغايــة التي يهـدف إليهــا البحث ، وهي تحديد الأصل الأصيل للعقيـدة والمظهـر الذي ظهـرت به في أول الأزمنـة بإطـلاق ؛ فلأن هـذه المنطقـة « البدائيـة المحضـة » قـد اعتبرها العلم شقة حرامـاً حظرهـا على نفسـه ، وأعلن بصراحـة خروجها عن حدود عمله . . . ومؤرخو الديانات على الخصوص معترفون ، بأن الآثار الخاصة بديانـة العصر الحجري ومـا قبله لا تزال مجهولـة لنا جهـلاً تامـاً فلا سبيـل للخوض فيهـا إلا بضربٍ من التكهن والرجم بالغيب .

وأمـا من حيث المنهج وهو الاستدلال عـلى ديانـة الإنسانيـة الأولى بديانة الأمم المنعزلـة المتخلفة عن ركب المدينة ؛ فلأنّه مبني على افتراض ، أن هذه الأمم كانت منـذ بدايتهـا على الحـالة التي وصـل إليها بحثنـا ، وأنها لم تمر بهـا أدوار متقلبة ، وهـو افتراض لم يقم عليه دليل ، بـل الذي أثبتـه التاريخ ، واتفق عليه المنقبـون عن آثـار القرون الماضيـة ، هـو أن فتـرات الـركـود والتقهقـر التي سبقت مدنياتها الحاضرة ، كانت مسبوقة بمـدنيات مـزدهرة ، وأن هذه المدنيات قامت بدورها على أنقاض مـدنيات بـائدة قريبة ، أو بعيدة ، في أدوار تتعاقب عـلى البشريـة . . فمن العسـير أن نحكم بصفة قاطعة ، أن الخرافـات القديمـة ، بدايـة ديانات ، كما يمكن أن تكـون تحلل وتحـريف لـديـانـة صحيحـة سـابقـة مزقت أهلهـا الحـروب ، أو أفسدتهم المؤثـرات الاجتمـاعيـة ، فقلّت عنـايتهم

بأصول دينهم فضاع وبقي تعلقهم بأشياء منه محرفة ،أو مغلوطة ، بهذا يظهر مبلغ ثبات الفرض الذي بنيت عليه البحوث الحديثة كلها ،وأنها أسست على جرف هارٍ لا تطمئن عليه الأقدام »[1] .

ومما يوضح بطلان هذه الطريق الذي سلكها أصحاب المذهبين للوصول إلى معرفة هذا الأمر المهم بالنسبة للبشرية ، أن القدر الذي عُرف من تاريخ البشرية وبين عصر نشأتها لا تزال الثغرة واسعة لم تسد ولن تسد إذ لم يقل أحد ، إن الوقائع المفقودة الوثائق يمكن إثباتها على وجه قاطع بمثل هذا الضرب من التخمين اعتماداً على مجرد حسن المقابلة ، وجمال التناسق بينها ، وبين الوقائع المعروفة ، دون تثبت من حصول التشابه بين تلك العصور حتى يتم القياس على وجه صحيح ودقيق[2] .

وأما الاستدلال بالآثار من النقوش ، أو الحفريات ثم استنطاق الرمم فأمر يحتاج إلى كثيرٍ من التأمل ، وكل من كان له قلب يدرك مدى اختلاف تفسيرات الناس للأشياء المعينة المشاهدة في وقتٍ واحد ، فكيف الحال بتفسيرات المتأخرين بقرون طويلة لأحوال أولئك المتقدمين وأعمالهم ؟ كما أن تعبيرات الناس عن الصور الحية متباينة كل التباين فكيف هي

---

(1) الدين ص ١١٣ ، ١١٤ بتصرف .

(2) انظر الدين ص ١١٨ .

عنها بعد أن رَمّتْ ؟!

هـذا فيما يتعلق بمستنـد الرأيـين على حـد سـواء ، ويـزيـد المذهب التطوري في كو نه مبنياً على افتراض آخر هو :

أن الملكـات والأحـاسيس الـروحيـة كـالقـوى البـدنيـة ، والمكتسبـات العقلية ، والتجـريبية ، فكـما أن الإنسـان ينتقـل في نمـوه البدني من الضعف إلى القـوة ، وفي نموه العقـلي من الجهالـة إلى المعرفة قد يلوح أنه بدأ حياتـه الروحيـة بالسخف والخـرافة ، ولم يصل إلى العقيدة السليمة إلا بعد جهد وعناء[1] .

وقـد انتقد هـذا القياس ، بـأن المشاهـد من حيـاة النـاس الـروحيـة ، عـدم التـوافق في كـل أدوارهـا جنبـاً إلى جنب مـع حيـاتهم الماديـة ، بل إنهما تسيـران في طريقـين متعارضـين ككفتي الميـزان لا ترتفـع إحـداهمـا إلا انخفضت الأخـرى ، وقليـلاً من التـأمـل يهـدي إلى أن محـاولـة قيـاس الأديـان عـلى الفنـون والصنـاعات إنمـا هو محـاولة للجمـع بـين أمـرين لا تؤلف بينهـما حقيقـة نوعيـة مشتركـة ، بل تتبـاين طبائعهـما ووسائلهـما ، ولقد كـان مقتضى الـوضـع السليم في تعـرف مـا كـانت عليـه بـدايـة الأديان فيما قبل التاريخ أن نسترشـد في مقارنتهـا بسير الـديانـات المعروفة منذ طفولة التاريـخ إلى اليوم ؛ فـالمعروف بالاستقراء :أن كل واحدة من هـذه الديـانات بـدأت بعقيدة التـوحيد النقية ، ثم خالطتها الشوائب،والأباطيل مع تقادم زمنهـا ، فالأشبـه أن تكون

---

(١) انظر : الدين ص ١١٥ .

هذه سنة التطور في الديانات كلها .

فإذا أبينا إلاَّ أن نقيس تطور الدين على تطور الفن كان من الحق علينا ألا نأخذ في هذه المقارنة بالمقاييس السطحية والتشابه اللفظي الأجوف ، بل ننظر إلى جوهر الأشياء ، وأعماقها ، وحينئذٍ ينقلب هذا القياس نفسه حجة في يد القائلين « بأصالة التوحيد وفطريته » ذلك أن معنى التطور في الفنون ـ كما في كل كائن حي ـ هو أنها تبدأ في صورة ساذجة ، متحدة متجانسة ، ثم تنتقل تدريجياً إلى نوع من التكثر والتركيب ، تزداد به تعقيداً كلما بعدت عن أصلها ، وواضح أن تطبيق هذا القانون التطوري بمعناه العلمي الحيوي على العقيدة الإلهية يستوجب أنها سارت أيضاً من الوحدة إلى الكثرة ، ومن النقاوة والسهولة واليسر إلى التعقد بالإضافة الأسطورية ، والنزوات الخيالية ، التي لا ضابط لها من العقل السليم .

أما التطور بمعناه الأدبي ، وهو الترقي من النقص إلى الكمال ، فليس قانوناً علمياً ، ولا سنة طبيعية مطردة ، ولا يمكن تطبيقه بصفة آلية على التاريخ البشري ، وإنما هو إحدى القيم العليا التي تطمح إليها النفوس ، فتبلغها حيناً وتنحسر عنها أحياناً ، بحسب تهيىء الأسباب ، وانعدامها ، لكن شتان ما بين قابلية الترقي وبين تحققه بالفعل[1] .

(١) انظر : الدين ص ١١٥ ـ ١١٧ .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز بعد مناقشة استدلال القائلين بالتطور ـ وهو ماذكرت خلاصته ـ : « هكذا نرى أن التحليل النفسي ، وشواهد التاريخ ، والتطور الصحيح ، لا يقف شيء منها في صف الدفاع عن النظريات الموسومة بالتطورية ، والتي تجعل الخرافة والأسطورة هي بداية الأديان ، بل إنها بالعكس ، تميل إلى تأييد النظريه المقابلة[1] . غير أن تأييدها لهذه النظرية الأخيرة لا يرفعها إلى صف الحقائق التاريخية المفروغ منها؛ لأن هذه الدلائل كلها لا تقدم لنا ضماناً من المنطق،ولا من الواقع تثبت به أن الحوادث كانت تسير بالفعل دائماً على وفق ما ألفناه من الأوضاع ، ولا على الوجه الذي كان ينبغي أن يكون »[2] .

من خلال ما سبق ، رأينا أن وسائل العلوم التي يسلكها الباحثون في تحري الحقائق لم تقدم لنا بياناً شافياً يطمئن إليه القلب وتسكن إليه النفس عن ديانة الإنسان الأول ، كما أنها لن تقدم ذلك بحكم تغيرات الأحوال التي تطرأ على البشرية سلباً وإيجاباً لا على وتيرة واحدة ، فقد يكون صعوداً في الإيجاب ، أو هبوطاً في السلب ، أو طوراً إيجاباً ، وطوراً سلباً متعاقباً تبعاً لمقتضيات الأحوال ، لهذا فالطريق الموصل إلى الحق

(١) إطلاق « نظرية » على القول « بفطرية التوحيد » هنا من حيث منهج أصحابها في الاستدلال . حيث لا يختلف كثيراً عن منهج القائلين « بالتطور » .

(٢) الدين ص ١١٧ .

في هذا الأمر هو السمع وبه شفاء القلوب الحية وطمأنينة النفوس السوية .

وقد مر معنا في الكلام على خلق آدم - عليه السلام - أن الله خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء كلها ، فتميز على الملائكة بنوع علمه ، ثم أسكنه الله - تعالى - الجنة هو وزوجه .

قال تعالى : ﴿ **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾[2] .

وهل يخطر في بال عاقلٍ أن يكون هذا المخلوق المكرم على الملائكة ، المعلم للأسماء كلها ، لم يعرف الله - تعالى - وما يجب له وما يجوز في حقه ، وما هو واجب العبد تجاهه ، وهو يرى الملائكة يسبحون الله ويحمدونه ، لا يفترون ، مع أن الله - تعالى - أمره ، ونهاه ، وحذره هو وزوجه عندما أمرهما بسكنى الجنة والأكل منها حيث شاءا ، إلا شجرة واحدة ، نهاهما عنها وحذرهما عاقبة قربها ، كما أخبر تعالى آدم - عليه السلام - بعدوّه

---

(١) سورة البقرة آية (٣٥) .

(٢) سورة الأعراف آية (١٩) .

وعدوّ زوجه ، إبليس ـ لعنه الله ـ ومغبة أثر طاعته ؛ خروجهما من الجنة ، وحصول الشقاء لآدم ـ عليه السلام ـ قال تعالى : ﴿ **فقلنا يا آدم إن هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى** ﴾[١] .

ولم يعص الله ـ تعالى آدم ـ عليه السلام ـ متعمداً، ولا جاهلاً قال تعالى : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً** ﴾[٢] .

وقال تعالى فيما حكي من فعل إبليس : ﴿ **وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدوٌ مبين** ﴾[٣] .

وبعد مخالفة آدم وحواء نَهْي الله ـ تعالى ـ لهما ، وطاعة عدوهما ، وحصول ماحصل نتيجة المعصية من بُدُوِّ السوأة والغواية .

قال تعالى : ﴿ **فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى** ﴾[٤] .

---

(١) سورة طه آية (١١٧) .
(٢) سورة طه آية (١١٥) .
(٣) سورة الأعراف الآيتان (٢١ ، ٢٢) .
(٤) سورة طه آية (١٢١) .

أدرك آدم وحواء بعد الوقوع في المنهي عنه أثر المعصية . فندما على ما حصل ، وتوجها إلى الله - تعالى - طالبين مغفرته ورحمته - معترفين بالذنب ، وبظلم النفس.

قال تعالى مخبراً عنهما : ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنّه هو التواب الرحيم** ﴾[2] .

وتلك الكلمات التي تضرع بها إلى الله - تعالى - توبة وإنابة لا تكون إلا بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، وهي طريق دعائه ، ومناجاته وكان هذا قبل أن يهبطه الله - تعالى - إلى الأرض كما هو رأي بعض العلماء[3] . وبعد أن أهبطه الله - تعالى - إلى الأرض ، ذكره بعداوة إبليس له وأنه مصدر شر له ، وأنّ هداه وصلاحه لا يكون إلا من الله - تعالى - تلقياً أمراً ونهياً ، ووصف طريق ، وبترك ذلك ،الوقوع فريسة هذا العدو الخطير الذي أخذ على نفسه العهد بإضلال بني آدم .

قال تعالى : ﴿ **ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال**

---

(1) سورة الأعراف آية (٢٣) .

(2) سورة البقرة آية (٣٧) .

(3) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١ /٣٢١ . وقد رأى الإمام القرطبي ذلك استناداً إلى تكرارها في الآية بعد ذلك بقوله : ﴿ **قلنا اهبطوا** ﴾ البقرة (٣٨) .

اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾[1] .

وقال تعالى حاكياً قول إبليس : ﴿ **قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين﴾**[2] .

كل هذه الآيات تتضمن أموراً دالة على أولية توحيد الله ـ تعالى ـ ومعرفته في شخص أول البشر آدم ـ عليه السلام ـ وزوجه حواء ـ رضي الله عنها ـ . .

وأمّا كون الهداية لا تحصل للبشر فطرة ـ مع أنهم مفطورون على معرفة الله ـ تعالى ـ فأمر متعلق بخلق الإنسان مكلفاً ؛ فيه دواعي الخير ، ودواعي الشر ، ليعيش في هذه الأرض فترة ثم يؤول إلى دار الجزاء ، وليس هذا موضع بيان هذا الجانب . إنما المقصود هنا بيان دلالته على الهدى ، كما أن في إقسام إبليس باغواء بني آدم ما يدل على سبق الهدى ولو كان متأخراً ، لأقسم بصرفهم عنه ، والحيلولة بينهم وبينه .

والنصوص الدالة على أن التوحيد هو الأصل ، وأن الشرك طارىء ـ غير دلالة ما ذكرته من النصوص المتحدثة عن قصة خلق آدم ـ عليه السلام ـ وسكنه الجنة ، ثم خروجه منها ـ كثيرة جداً من القرآن الكريم ومن السنّة المطهرة : فمن القرآن ما

---

(١) سورة طه الآيات (١٢٢ ـ ١٢٤) .

(٢) سورة ص الآيتان (٨٢ ـ ٨٣) .

يلي :

قوله تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **كان الناس أُمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وما كان الناس إلاَّ أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون** ﴾[3] .

في الآياتِ الكريمات دلالة على أن الدين الحنيف هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها وذلك هو الدين القيم الذي كان الناس عليه قبل الاختلاف ، ذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى : ﴿ **كان الناس أُمة واحدة** ﴾ أنّ الناس بقوا عشرة قرون على الدين الحق قبل حدوث التغيير وطروء الشرك[4] .

---

(١) سورة الروم آية (٣٠) .

(٢) سورة البقرة آية (٢١٣) .

(٣) سورة يونس آية (١٩) .

(٤) انظر : التفسير الكبير للإمام الرازي ٦ / ١١ ـ ١٣ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣ / ٣٠ ، ٣١ ، وكتاب النبوات لابن تيمية ص ١٧٣ . وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٢ / ٣٠٠ ـ ٣٠٦ .

ومن السنّة ما يلي :

روى الإمام مسلم بسنده عن عياض بن حمار المجاشعي ؛ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ، ذات يوم في خطبته : « ألا إنّ ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني ، يومي هذا . كل ما نحلته عبداً ، حلال ، وإنّي خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً . . . الحديث »[1].

وروى الإمام البخاري بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة هل تحسون فيها من جدعاء ، ثم يقول أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »[2] .

في الحديث النص الصريح على أن الله ـ تعالى ـ خلق البشر موحدين ، وأن ما حصل من الشرك هو من المؤثرات الخارجية الطارئة على الإنسان سواء من الشياطين ، أو الوالدين ، أو نحو ذلك .

هذه إشارة إلى صلب الأدلة الدالة على الفطرة . حيث لا

(١) سبق تخريج الحديث ص (١٢) .
(٢) سبق تخريج الحديث ص (١٢) .

يقتضي المقام هنا بحث الفطرة من حيث هي . فالغرض لفت انتباه من يقعون في تلك الأخطاء إلى الحق في الموضوع وفي هذا - إن شاء الله تعالى - شفاء للصدور ، وأما مجال الحديث عن الفطرة وما يتعلق بها من مسائل فواسع جداً وأدلته كثيرة نقلية وعقلية مذكورة في مواضعها [1] .

وبعد هذا أقول : غريب أمر الباحثين في تاريخ الأديان كيف يغفلون آثار الأنبياء ، ويتجاهلون كتبهم ، ويتعلقون بالواهي من الأدلة ، ورموز الأخبار ، والآثار وتزداد الغرابة وتعظم المصيبة حينما يكون الباحث مسلماً ويتابع غير المسلمين في مثل هذه الأمور التي صرحت بها الأديان السماوية ، وجلاها الدين الإسلامي بما لا يدع مجالاً للشك ، سواء بالنسبة لخلق الإنسان ، أو تكوينه ونظام حياته ودينه ، والحكمة من خلقه ووجوده ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

الأمر الثالث : أن الله - تعالى - لم يترك أُمة بلا نذير :

آدم - عليه السلام - هو أول البشر خلقه الله - تعالى - من تراب ، من غير أب ، ولا أم ، ثم خلق منه زوجه ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، وبداية عيش هذا النوع كانت في الجنة ،ثم أهبط إلى الأرض ، عرف ربه في السماء ، وتوجه إليه وأناب بعد أن أهبطه إلى الأرض ، وقد سبق الحديث عن

(١) انظر في أدلة الفطرة نقلاً وعقلاً : شفاء العليل لابن القيم ص ٥٩٢ - ٦٤١ . وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٣ - ٢٦ .

هذا[1] .

وقد تولى تبارك وتعالى هذا النوع من خلقه بهداه إذ لا صلاح له ، ولا بقاء في هذه الدنيا إلا باتباع هدي الله - تعالى - قال سبحانه : **﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**[2] .

وقال تعالى : **﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾**[3] .

والاتباع تعني الانقياد إرادة مع العلم ، وهذا بخلاف المطبوع ، والمكره ، وقد جعل العليم الحكيم تلك القوى في المكلفين ابتلاء إذ لا معنى للثواب ، ولا للعقاب ما لم يكن المكلف عالماً قادراً مريداً . والإنسان أحد أنواع المكلفين - وهو ما عنه أتحدث - مخلوق من عنصرين مختلفين - بدن ، وروح - لكل منهما مطالب بحسب مادته ، وطريق تحقيق رغبات كل منهما لا تتم منفردة عن الآخر نظراً لاتحادهما في هذا الكيان (الإنسان) ولقوى الإنسان العقلية والبدنية كما للنشأة والبيئة أثر في سعي الإنسان لتحقيق رغباته ، وقد جعل العدل الحكيم للشيطان القدرة على النفوذ في جسم الإنسان ، والسير في عروقه

---

(1) انظر ص (٧٥ - ٧٨) .

(2) سورة البقرة آية (٣٨) .

(3) سورة طه الآيتان (١٢٣ ، ١٢٤) .

والوسوسة له برغباتـه ، ودفعه إلى مـا يضله ما استـطاع إلى ذلك سبيلاً[1] .

ويقابل قوة الشر ودواعيها في الإنسـان ، العقل الـذي هو مناط التكليف ، والفطرة عـلى معـرفـة الله ـ تعـالى ـ ثم الهـدي الـذي يأتي من الله ـ تعـالى ـ عـلى ألسنـة أنبيـائـه ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

وهـذا الوضـع ملازم للنـوع الإنساني من أبيهم إلى نهايـة ذراريهم ، وقـد يتخلف بعض ذلك في أفـراد مرضاً ،أو في كـل ، أو بعض فترة، ولكل حكمة .

ولا أريد هنا أن أذهب بعيداً عن النصوص في تقـرير هـذا الجـانب ، وإلا ففي دراسة حيـاة البشر ، في فترات تـرك الهـدى السمـاوي ، ما يـدل دلالة واضحـة على أن الإنسـان لا يمكن له البقـاء زمناً طويـلاً فـي حياة يسودها الأمن ويعمها الرخاء ، نتيجـة لسعيـه في إشباع غـرائزه من غـير ضابط ، ولا ضـابط كـالـرقيب من الذات (الإيمان) ولا يمكن تحقيق هذا في مخلوق خلق ليبتلي أيُّه أحسن عملاً إلا بتعليم يبين حَسَن العمل، وقبيحـه، ويصل

---

(١) دليل هذا . الحـديث المتفق على صحتـه : « إن الشيطان يجـري من الإنسان مجـرى الـدم » . أورده البخـاري في عـدة مـواضـع : أولهـا في كتـاب الاعتكـاف ، باب زيـارة المرأة زوجهـا وباب هـل يدرأ المعتكف عن نفسـه ٣ / ٦٥ . ومسلم كتـاب السلام ، بـاب بيان أنـه يستحب لمن رؤي خاليـاً بـامرأة أن يقـول هـذه فـلانـة ٤ /١٧١٢ ، والـدارمي ٢ / ٣٢٠ ، ومسنـد الإمام أحمد ٣ / ١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٠٩ ، ٦ /٣٣٧ .

صاحبه بمن يعلم السر وأخفى ، ويتعامل معه مؤمناً بعلمه وقدرته ، وصدق وعده ووعيده .

وأما النصوص التي أحببت أن أربط القارىء بها فهي : -

أولاً : نصوص دالة على أن الإنسان لم يخلق عبثاً ، ثم لم يترك سدى إنّما خلق لحكمة وغاية ، مبتلي بالفعل والترك طاعة لله - تعالى - فيما أوحاه إلى رسله .

يقول تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنّا هديناه السبيل إما شاكراً ، وإما كفوراً** ﴾[1] .

ويقول تعالى : ﴿ **أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾[2] .

ويقول تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾[3] .

ويقول تعالى : ﴿ **وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾[4] .

ويقول تعالى : ﴿ **إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها**

---

(١) سورة الدهر الآيات (١ - ٣) .

(٢) سورة المؤمنون الآية (١١٥) .

(٣) سورة القيامة آية (٣٦) .

(٤) سورة هود آية (٧) .

لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾[1] .

ويقول تعالى : **﴿ الـذي خلق الموت والحيـاة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾**[2] .

ويـقــول تـعــالى : **﴿ ومــا خــلقـت الجــن والإنس إلاّ ليعبدون ﴾**[3] .

تضمنت تـلك الآيـات خلق الإنـســان في استـعــدادات يتمكن بهـا من سلوك مـا يختـاره من الـطرق ، خيراً ، أو شـراً . وعليـه يستحق الثواب ، أو العقـاب ، فهو لم يخلق عبثـاً ، حيث لم يعهد في مخلوقات الله ـ تعـالى ، وتقدس ـ العبث . إنمـا خُلق لحكمة ابتلاءً أيُّـه أحسن عملاً في عبـادته التي خلقـه لها، وجعل رسله دعاة إليها.

ثانياً: نصوص دالة على تَعَهُّد الله هذا النوع من خلقه بوحيه .

فأول البشر خلقاً ـ آدم ، عليه السلام ـ كـان أول المجتبين المخــاطبـين بــوحي الله ـ تعـالى ـ وهــو ممن كلم الله ـ تعــالى ـ واصطفاه بالنبوة .

روى الإمـام أحمـد بسنـده عن أبي ذر قـال : أتيت رسـول الله ـ صـلى الله عليـه وسلم ـ وهــو في المسجـد فجلست « . . .

---

(١) سورة الكهف آية (٧) .

(٢) سورة الملك آية (٢) .

(٣) سورة الذاريات آية (٥٦) .

الحديث وفيه ، قلت : يا رسول الله : « أي الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدم » قلت : يا رسول الله ونبي كان ؟ قال : « نعم نبي مكلم . . . »[1] .

وصرح كثير من العلماء بنبوة آدم - عليه السلام - أو رسالته ، كابن حزم[2] ، والرازي[3] ، والقرطبي[4] ، وابن تيمية[5] ، وغيرهم كثير .

يقول الله - تعالى - : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾[6] .

ويقول تعالى : ﴿ **ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون** ﴾[7] .

ويقول تعالى : ﴿ **ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾[8] .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥ /١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ .
(٢) انظر الفصل : ٥ /٤٨ .
(٣) انظر التفسير الكبير : ٢٢ /١٢٨ .
(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن : ٣ /٣١١ ، ١١ /٢٥٦ ، ٢٥٧ .
(٥) انظر النبوات ص : ١٧٣ ، وشرح العقيدة الأصفهانية ص : ٩٣ .
(٦) سورة النساء آية (٤١)
(٧) سورة النحل آية (٨٤) .
(٨) سورة النحل ية (٨٩) .

ويقول تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾[1] .

ويقول تعالى : ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ، وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير** ﴾[2]

دلت النصوص السابقة على تعهد الله ـ تعالى ـ الإنسان من أول وجوده بما فيه كماله ، بالشرائع السماوية الداعية إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة ما سواه ، ولم يترك تبارك وتعالى أمة اقتضت حالتها بعث نبي إلا وبعثه ، كأن يكون ما بأيديهم من شرع لأمة سابقة ، ولا يناسبهم ، أو أن يكون ما بأيديهم من شرع طرأ عليه محي ، أو تغيير، أو نحو ذلك.

ثالثاً : نصوص دالة على أن الله ـ تعالى ـ لا يعذب من لم تقم عليه الحجة بإرسال الرسل منه تبارك وتعالى :

يقول تعالى : ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾[3] .

ويقول تعالى : ﴿ **رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾[4] .

---

(١) سورة النحل اية (٣٦)

(٢) سورة فاطر آية (٢٤) .

(٣) سورة الإسراء يّة (١٥) .

(٤) سورة النساء آية (١٦٥) .

ويقـول تعـالى : ﴿ **ولـو أنـا أهلكنــاهم بعـذاب من قبله لقـالوا ربنـا لولا أرسلت إلينـا رسولاً فنتبـع آياتـك من قبـل أن نذل ونخزى** ﴾[1] .

ويقـول تعـالى : ﴿ **ولـولا أن تصيبهم مصيبة بمـا قـدمت أيـديهم فيقولـوا ربنـا لـولا أرسلت إلينـا رسـولاً فنتبـع آيـاتـك ونكون من المؤمنين** ﴾[2] .

ويقـول تعالى ـ فيـما حكاه جـواباً لأهـل النـار من خـزنتهـا حـين طلبـوا الـدعـاء بتخفيف العـذاب ـ : ﴿ **قـالـوا أو لم تـك تـأتيكم رسلكم بالبينـات قالـوا بلى ، قـالوا فـادعـوا ومـا دعـاء الكافرين إلا في ضلال** ﴾[3] .

الـوحـي الإلـهـي طـريق كمـال البشر كما هـو جـلي في الآيات السابقة حيث نفى تبارك وتعـالى تعذيبـه لمن لم يرسـل إليه رسولاً بالهدى والنور وبعد الرسـالة تقـوم حجة الله عـلى خلقه ، وبمخـالفة رسله يستحقـون العـذاب الـدنيـوي والأخـروي ، ولا أحـد أحب إليـه العـذر من الله ـ تعـالى ـ فـلا يعـذب أحـداً ممن عصـاه ، إلا بعـد أن يقيم عليـه الحجـة بتقـريـره بـذنـوبـه ، وباستنطاق أعضائه شاهدة بمـا فعل ، وبالإتيان بـرسول كـل أمة شـاهداً عليها ،كما دلت عـلى هذا النصـوص الكثيرة ممـا لا يتسع المجال لذكرها .

---

(١) سورة طه آية (١٣٤) .

(٢) سورة القصص آية (٤٧) .

(٣) سورة المؤمن آية (٥٠) .

وأقول : إن ما سبق يصور لنا ، أن حال الإنسان بعيداً عن الوحي كحال من زال تكليفه ، وهذا شاهد بنقص الإنسان ما لم يتزود بالوحي ، مع ما هو عليه من قوام حسن، وتميز عن غيره من المخلوقت، بعقله،وبنوع حواسه ، وأن كماله بما هو خارج عن ذاته ، اتباع هدي الله ـ تعالى ـ فالنبوة هي من متممات كون الإنسان ، ومن أهم حاجاته لبقائه في الحياة ، ولسعادته بعد الممات، ومنزلتها من هذا النوع منزلة العقول من الأشخاص، نعمة أتمها الله على خلقه؛ لئلا يكون للناس حجة على الله بعد الرسول . والله أعلم .

ثانياً : مفهومات خاطئة :

١ ـ النظرة إلى المسيحية :

جاء في تعقيب صاحب كتاب اتجاهات التربية ، على الفصل السادس منه ، اتجاهات التربية في المجتمع الروماني ، تحت الحقيقة « خامساً » التأثر باتجاهات المسيحية القول : « . . . أخذت المسيحية في أواخر العصور الرومانية ؛ (منذ أوائل القرن الرابع الميلادي) في تنظيم العقائد ، تنظيماً يتفق مع المنطق والعقل مستعينة في ذلك بالفلسفة اليونانية »[1] .

وجاء في حديثه ضمن الفصل التاسع ـ اتجاهات التربية في المجتمعات الأوروبية ، تحت فقرة « أ » التربية في العصور

(١) اتجاهات التربية عبر العصور ص : ١٠٩ .

الوسطى ، القول : « وقد كان من أعظم المربين في تلك العصور « الكوين » (٧٣٥ ـ ٨٠٤ م) وتلاميذه الذين يعتبرون من المجددين في النواحي الفكرية والدينية ، على أسس سليمة من التكامل ـ الفكري والديني والتربوي بصفة عامة من أجل صلاح المجتمع »[١] .

وقبل التنبيه على أي مخالفة في النصين السابقين أَلْفِت انتباه القارىء إلى أنني حين وضعت هذا الموضوع تحت هذا العنوان هو على اعتبار أن الموضوع مجرد حكاية اعتقاد أولئك ـ مع التساهل في التنبيه على أن ذلك على حد زعمهم ـ لا على اعتبار كون ذلك مسلماً فاعتقاد هذا أمر في غاية الخطورة ، فقد يوصل معتقده إلى الكفر ، إن رأي أن الديانة اكتملت بوساطة الفلسفة ـ بالنسبة للنص الأول ، أورأى صحة الديانة المسيحية بعد بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمن بلغه مبعثه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وحول هذا الموضوع حقائق يجب أن لا تغيب عن البال :

منها ـ أن عيسى ـ عليه السلام ـ قد ضايقه اليهود وطاردوه ، من أول دعوته إلى أن رفعه الله إليه ، ولم يؤمن به في حياته ـ عليه السلام ـ إلا مائة وعشرون رجلاً ، وقليل من النسوة[٢] .

ومنها ـ أن أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ بقوا مستترين

---

(١) اتجاهات التربية عبر العصور ص : ١٨١ .

(٢) انظر : الفصل لابن حزم ٢ /١٦ .

بدينهم من انكشف منهم كان مآله القتل بالسيف ، أو رمياً بالحجارة ، أو صلباً ، أو بالسم ، وبقوا على هذه الحال ثلاثمائة سنة بعد رفع عيسى ـ عليه السلام ـ لا يأمنون في مكان ، ولا يظهرون دينهم البتة[1] .

ومنها ـ أن ظهور النصرانية ، واجتماعها كان بتنصر قسطنطين الملك في بداية القرن الرابع الميلادي[2] .

ومنها ـ أن ظهور التحريف في الدين المسيحي أخذ شكلاً علنياً ، مع بداية القرن الرابع الميلادي بجهود قسطنطين بجمع البطاركة والأساقفة في مجامعهم التي بدأت في هذه الحقبة وتتابعت وفيها يخطىء بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً[3] .

هذه الحقائق التي يلمسها أي دارس للتاريخ المسيحي ، تجعل من له مسكة عقل ينظر إلى هذا الدين بعد ذلك التاريخ نظرة ملئها الشك ، وسرعان ما يتحول ذلك الشك إلى يقين بعد فترة من الزمن (أكثر من قرنين) بمبعث محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث يجد الخبر القطعي عن حال أولئك وحياً ـ

(١) انظر : الفصل ٢/١٦ ، ١٧. والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٣ /١٧ ، ١٨ . وهداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ضمن الجامع الفريد . ص ٦٤٣ ـ ٦٤٧ .

(٢) انظر الفصل ٢ /١٧ والجوبالصحيح ٣/١٩ ، ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) انظر الجواب الصحيح ٣ /٢٨ ـ ٤١ . وهداية الحيارى ص : ٦٤٦ ـ ٦٥٨ . ومنحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب لابن معمر ص : ٢٣ ـ ٣٤ . والمسيحية لأحمد شلبي ص ١٣٢ ـ ١٣٥ . وأقانيم النصارى لأحمد حجازي السقا ص ٥٩ ـ ٦١ .

من أول القرن السابع الميلادي ـ . قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾[1] .

ويقول تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنّه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾[2] .

وأعم من ذلك بالنسبة لحال المسيحيين وغيرهم نسخ الدين الإسلامي لكل ما سبقه من أديان ، ونزوله عاماً للمكلفين يظهر هذا جلياً في كتاب الله ـ تعالى ـ وفي سنة نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم إجماع أصحابه ، ومن بعدهم على كفر من لم يؤمن بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وفي منهج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في تبليغ الدعوة ، ومنهج أصحابه : تفسير عملي لقول الله ـ تعالى ـ في لزوم هذا الدين للعالمين .

وحيث إن أدلة القرآن ، والسنّة النبوية على عموم رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولزومها بعد بعثته للناس كثيرة

---

(١) سورة المائدة آية (١٧) .

(٢) سورة المائدة الآيتان (٧٢ ، ٧٣) .

فسأكتفي بذكر بعضها :

يقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين** ﴾(1) .

ويقول تعالى لنبيه : ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلّا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأُمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾(2) .

ويقول تعالى : ﴿ **قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون** ﴾(3) .

وروى الإمام البخاري بسنده عن جابر بن عبدالله ، أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن

---

(1) سورة الانعام آية (٩٠) ، وورد هذا العموم بهذا اللفظ في مواضع أخرى مثل آية (١٠٤) ، من سورة يوسف ، وآية (١٠٧) من سورة الأنبياء ، وآية (١) من سورة الفرقان ، وآية (٨٧) من سورة ص ، وآية (٥٢) من سورة القلم ، وآية (٢٧) من سورة التكوير .

(2) سورة الأعراف آية (١٥٨) وورد مثل هذا في مواضع أخرى مثل آية (٧٩ ، ١٧٠) من سورة النساء ، وآية (٥٢) من سورة إبراهيم ، وآية (٢٨) من سورة سبأ .

(3) سورة الانعام آية (١٩) .

أحـد قبلي : « نصـرت بالـرعب مسيرة شهـر ، وجعلت لي الأرض مسجـداً وطهوراً ، فـأيما رجل من أمتي أدركتـه الصلاة فليصـلِّ ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعـطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى النـاس عامـة . »[1] .

وروى الإمـام مسلم بسنده عن أبي هـريـرة ، عن رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « والـذي نفس محمد بيـده لا يسمـع بي أحد من هـذه الأمة يهـودي ولا نصراني ، ثم يمـوت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار »[2] .

تلك بعض أدلـة القرآن الكـريم ، والسنّة النبـوية المـطهرة

---

(١) صحيح الإمام البخـاري كتاب التيمم . بـاب قول الله ـ تعـالى : ﴿ **فإن لم تجـدوا مـاء فتيممـوا** ﴾ ١ /٩١ ، ٩٢ . وانـظر : من الصحيـح كتـاب الصـلاة ، بـاب قـول النبي : « جعلت لي الأرض مسجـداً وطهـوراً » ١ /١١٩ ، وصحيـح الإمـام مسلم : كتـاب المسـاجـد ومـواضـع الصـلاة ١ /٣٧١ ، ٣٧٢ ، وسنن الـدارمي : كتاب الصـلاة . باب الأرض كلهـا طهـور ما خـلا المقبرة والحمـام ١ /٣٢٢ ، ٣٢٣ . وكتـاب السير ، بـاب الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا ٢ /٢٢٤ . وسنن الترمذي كتـاب السير ، بـاب ما جاء في الغنيمة ٤ /١٢٣ ، وسنن النسائي كتـاب الغسل ، بـاب التيمم ١ /٢٠٩ ـ ٢١١ . ومسنـد الإمام أحمـد ١ /٣٠١ ، ٢ /٢٢٢ ، /٣٠٤ ، ٤ /٤١٦ ، ٥ /١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ .

ام مسلم كتـاب الإيمان ، بـاب وجوب الإيمـان برسـالـة نبينـا ، الله عليـه وسلم ـ إلى جميـع النـاس ونسـخ الملل بملتـه ر مسند الإمام أحمد ٤ /٣٩٦ .

على عموم رسالة نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ للعالمين ، وأن من لم يؤمن به ممن بلغته فهو كافر .

ولصراحة تلك النصوص وغيرها ، أجمع الصحابة رضوان الله ـ تعالى ـ عليهم ، والتابعون لهم بإحسان على عمومها ، وكفر من بلغته ولم يؤمن بها ، واستحقاقه العذاب والجهاد[1] .

ومما هو دالٌ أيضاً على عموم الرسالة ، طريقة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي سار عليها في دعوته إلى الدين الإسلامي ، ثم نهجها من بعده أصحابه ، وهي دعوة الناس إلى الدخول في الإسلام من غير تفريقٍ بين أجناسهم ، أو أديانهم ، فدعا صلوات الله وسلامه عليه قومه ، ومن يفدون إلى مكة من غيرهم ، وتنقل ، ثم عقد الألوية وجاهد ، وأرسل رسله إلى الأمراء ، والملوك من العرب ، والعجم[2] . وأخبر بتكليفه بمقاتلة الناس ما لم يدخلوا في دينه .

روى الإمام البخاري بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « أُمرت أن أُقاتل الناس حتى

---

(١) انظر : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ١/ ١٢٦، ١٢٧ . وإيضاح الدلالة في عموم الرسالة لابن تيمية : ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ٢ /٩٩ ، وهي ضمن مجموع الفتاوي ١٩ /٩ ، ١٠ . والخصائص الكبرى للسيوطي ٣ /١٣٧ .

(٢) انظر : صحيح البخاري : كتاب الزكاة ، باب وجوبها ٢ /١٣٠ ، وكتاب بدء الوحي ١ /٦ ، ٧ . وفتح الباري لابن حجر ١ /٤٤ . والسيرة النبوية لابن هشام : القسم الأول ص ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله »[1] .

هذا وسأترك القارىء في ظلال تلك النصوص يتفيأ معانيها ، ويستنير بمراميها ، ثم ليصنف البشرية على ضوء ما فيها ، ويحكم بنفسه على قضيتين :

الأولى : تنظيم العقائد المسيحية ـ منذ أوائل القرن الرابع الميلادي ـ تنظيماً يتفق مع المنطق والعقل بالاستعانة بالفلسفة اليونانية .

---

(١) صحيح الإمام البخاري ـ كتاب الإيمان . باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ١ /١٢ ، ١٣ ، وكتاب الصلاة باب فضل استقبال القبلة ١ /١٠٨ ، ١٠٩ . وكتاب الزكاة ، باب وجوبها ٢ /١٣١ ، وكتاب الاعتصام ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ٩ /١١٥ . وباب قول الله ـ تعالى ـ وأمرهم شورى بينهم ٩ /١٣٨ .

وانظر : صحيح الإمام مسلم : كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، ١ /٥١ ـ ٥٣ ، وسنن أبي داود : كتاب الجهاد ، باب على ما يقاتل المشركون ٣ /٤٤ ، وسنن الترمذي : كتاب التفسير ، باب ومن سورة الغاشية ٥ /٤٣٩ ، وسنن النسائي كتاب الزكاة ، باب مانع الزكاة ٥ /١٤ . وسنن ابن ماجة : كتاب الفتن ، باب الكف عمن قال لا إله إلا الله ٢ /١٢٩٥ ، وسنن الدارمي : كتاب السيرة ، باب في القتال على قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم : « أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » ٢ /٢١٨ . ومسند الإمام أحمد : ٤ /٨ .

والثانيـة : التجـديـد في الـديـانـة المسيحيـة ـ في القـرن الثـامن الميـلادي ـ على أسس سليمـة من التكامـل في الفكـر الديني ؟!

٢ ـ تسمية الخلافة العثمانية استعماراً :

جاء في مواضع كثيرة من كتاب اتجاهات التربية عبر العصور قوله عن الخلافة الإسلامية العثمانية : « أصيب العالم العربي بانتكاس في معرفته ، وخمد ضياؤها حيناً من الدهر بفعل الاستعمار التركي الذي ضرب حصاراً ثقافياً حول البلاد العربية ، وحرمها من نور المعرفة،أو على الأقل ، أوصد نوافذها أمام العرب ، ولكنهم لم يستكينوا لذلك ، بل جاهدوا وثابروا في جهادهم حتى تحررت بلادهم مما ألقي على كاهلها من ضغوط الاحتلال العثماني ، وما أعقبه من أنواع أخرى من الاحتلال »[١] .

وأقول : إن الاستعمار[٢] بمعناه المصطلح : سيطرة شعب أو نفوذه على شعب آخر ، باغتصاب أراضي أهله واحتكار حاصلاته ، واستغلال موارده ، وامتلاك أسواقه لبيع منتجات المستعمر وتوسيع نطاقه

---

(١) ص : ١٥ ، ١٦ ، وانظر منه ص : ٢٨ ، ٢٢١، ٢٧١ .

(٢) الاستعمار في اللغة : التفويض في العمارة ، انظر : المفردات في غريب القرآن ص ٣٤٧ ، والمعجم الوسيط في اللغة ٢ /٦٣٣ .

التجاري[1] .

وإطلاق الاستعمار على ولاية العثمانيين على البلاد الإسلامية بحكم معناه خطأ فاحش ، خاصة حين يصدر من مسلم ؛ لأن المسلم يجب أن يكون حكمه نابعاً من منظور إسلامي بحت ، وأن يزن الأمور بميزان الإسلام ، بعيداً عن النوازع الأخرى كالقومية والوطنية . يقول تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[2] . ويقول تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[3] . فالرابطة الحقيقية هي الدين ، وبه التميز والعز ، وما سوى ذلك فالناس فيه سواء ، وقد أرسى النبي الخاتم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قواعد الدين وربى عليه أمته ، فكان من شأن أصحابه ما كان ، وبموته ـ صلى الله عليه وسلم ـ انقطع نزول الوحي من السماء بعد أن كمل الدين كما أخبر الله ـ تعالى ـ عن ذلك بقوله : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾[4] .

---

(١) انظر الموسوعة العربية الميسرة ص ١٤٣ . والمعجم الوسيط ٢/٦٣٣ . ويُقال في تعريف الاستعمار في حق استعمار الكفار بلاد المسلمين زيادة على ما ذكر: والسعي لمحاربة الإسلام بإضعاف شعائره قولاً وفعلاً بأيديهم وأيدي المسلمين.

(٢) سورة الحجرات اية (١٠).

(٣) سورة الحجرات آية (١٣).

(٤) سورة المائدة آية (٣) .

وتولى تبارك وتعالى حفظ هذا الدين حين ارتضاه ديناً إلى قيام الساعة فقال : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[1] . وقال : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[2] . فالتزامه واجب وكذا الدعوة إليه ، وكانت قمة الالتزام ، والدعوة في وقت المبلغ الأمين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، حين كان بلاغه وعمله ، وكذا وقت خلفائه الذين تولوا بعده ، في ذلك المجتمع الذي رباه المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان لتلك التربية الأثر الذي تحطمت أمامه جحافل الروم والفرس . وبعد ذلك بدأ التقصير في الأمة الإسلامية ؛ قولاً وعملاً ، نتيجة عوامل كثيرة ، زمانية ، ومكانية ، وشخصية ، وولاة الأمة من جملتها ومن غير العدل أن يوزنوا بغير ميزانها فالتقصير منهم كما هو من بقية الأمة ، وإن كانت التبعة عليهم أشد ، وليس من العقل أن نطمع بخليفة كأبي بكر وعمر في مجتمع ليس كمجتمع الصحابة .

ولقد جاء الخبر ممن لا ينطق عن الهوى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عن مدة الخلافة بعده . روى الإمام أحمد بسنده عن سفينة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك »[3] .

---

(١) سورة الحجر آية (٩) . (٢) سورة فصلت الآيتان (٤١ ، ٤٢) .

(٣) المسند ٥ /٢٢٠ ، ٢٢١ . وانظر : سنن أبي داود : كتاب السنة ، باب في الخلفاء ٤/٢١١ ، وسنن الترمذي : كتاب الفتن ، باب ما جاء في الخلافة ٤ /٥٠٣ . والحاكم في المستدرك ٣ / ١٤٥ ، ووافقه الذهبي .

وروى الإمام مسلم بسنده عن جابر بن سمرة قال : قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة » قال : ثم تكلم بشيء لم أفهمه ، فقلت لأبي : ما قال ؟ فقال : « كلهم من قريش »[1] .

ولا شك في أن من ولوا أمر المسلمين بعد هذا العدد الذي ذكره الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقبل استيلاء العثمانيين على الخلافة كثيرون ، وشروط الولاية الشرعية لا تتحقق كاملة في واحدٍ منهم ، فإن توفر شرط تخلف سواه ، ولكن الشارع الحكيم قد بيّن للمسلمين واجبهم تجاه من تولى أمرهم .

ويدرك المطلع على تاريخ الأمة الإسلامية ، أنها منيت بالتفكك والانقسام فأصبح كل جزء منها تحت إمرة أمير من الأمراء ، وبدأ ذلك باستيلاء العباسيين على الخلافة حيث انفصل جزء مهم من بلاد المسلمين ، بلاد الأندلس ، تحت إمرة أمراء من بني أمية ، وإن لم يتسموا باسم الخلفاء احتراماً لخلافة المسلمين التي لا تقبل التعدد ، والمتمثلة في خلافة العباسيين وتوليهم إمرة المسلمين بالمشرق، مقر الخلافة ، حتى شعر أولئك الأمراء من بني أمية بضعف الخلافة ، وما أعقبه من ظهور الشيعة بالقيروان : فتسمى الوالي على بلاد الأندلس ،

(١) الصحيح : كتاب الإمارة ، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ٣ /١٤٥٣ . وانظر : سنن أبي داود : كتاب المهدي ٤ /١٠٦ ، وسنن الترمذي : كتاب الفتن ، باب ما جاء في الخلفاء ٤ /٥٠١ . ومسند الإمام أحمد ١ /٣٩٨ ، ٤٠٦ ، ٥ /٨٦ ، ٨٧ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ .

عبد الرحمن بن محمد « الناصر » بأمير المؤمنين وذلك في سنة ٣١٧ هـ ، بعد توليه الإمارة بسبعة عشر عاماً[١] .

وقد كان من ولاة المسلمين ، سواء في المشرق ، أو في المغرب ، المحسن والمسيء ، وولاية المسلمين تجب لواحد ، وعلى المسلمين السمع والطاعة لمن تولى عليهم ، وأعطوه بيعتهم ، لما في ذلك من المصلحة العامة ، ولما في الاجتماع من القوة والهيبة للمسلمين ، ولما في الاختلاف من الضياع والفرقة ، وقد أرشد صلوات الله وسلامه عليه إلى ذلك . روى الإمام البخاري بسنده عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة »[٢] .

فالطاعة واجبة على المسلمين لمن تأمر عليهم ، وإن لم تتوفر فيه شروط الإمامة كاملة ، ما لم يظهر الكفر البواح .

وقد جاء التحذير الشديد من مخالفة جماعة المسلمين ، وعدم الطاعة . روى البخاري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يرويه قال : قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق

---

(١) انظر : جذوة المقتبس للحميدي ص ١٣ .

(٢) الصحيح : كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٩ /٧٨ ، وكتاب الأذان ، باب إمامة العبد والمولى ١ /١٧٨ . وانظر : مسند الإمام أحمد ٣ /١١٤ ، ١٧١ .

الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية »[1] .

بهذا الهدي جاء الإسلام ، وللمصلحة العامة رسم للمسلمين منهج حياة يكفل لهم عزتهم وقوتهم .

والأتراك إحدى الأمم التي تولت إمرة المسلمين فترة من الزمن، وقد دخلت الإسلام أيام الفتوح الإسلامية ، في عهد الخلافة الأموية والعصور الأولى من الخلافة العباسية ، وكثرة هجرتهم إلى الحواضر الإسلامية ، وكانوا جنوداً مهرة ، فذهبوا في الثغور بمقابلة الدولة البيزنطية ، وقد استخلفهم العباسيون ، وكانوا قوام الدولة منذ عهد المعتصم ، ولما بدا الضعف في خلافة العباسيين اضطلعوا بأعباء الأمة الإسلامية ،حيث نجد الطولونيين والمماليك والأخشيديين في مصر ، والسامانيين فيما وراء النهر ، والسلجوقيين والخوارزميين فيها وراءالنهر ،وتركستان ، وخراسان ، وهذا الوضع وإن لم يكن مظهراً صحياً في الأمة ،إلا أنها في وضعها قامت بدور كبير في حماية العالم الإسلامي ، من

---

(١) الصحيح : كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٩ /٧٨ ، وكتاب الفتن ، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - سترون بعدي أموراً تنكرونها ٩ /٥٩ .

وصحيح الإمام مسلم : كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ٣ /١٤٧٧ ، ١٤٧٨ . وانظر سنن أبي داود كتاب السنة ، باب في قتل الخوارج ٤ /٢٤١ . وسنن الترمذي كتاب الأمثال ، باب في فضل الصلاة والصيام والصدقة ٥ /١٤٨ ، ١٤٩ . وسنن الدارمي كتاب السير ، باب لزوم الطاعة والجماعة ٢ /٢٤١ ، ومسند الإمام أحمد ١ /٢٧٥ ، ٢٩٧ ، ٣١٠ ، ٤ /١٣٠ ، ٢٠٢ ، ٥ /١٨٠ ، ٣٤٤ .

الغزاة الصليبيين والمغول ، وكان الأناضول مسرحاً لحروب لا تهدأ،بين المسلمين والبيزنطيين ، ولما تكونت دولة العثمانيين ، وضمت إليها معظم البلاد الإسلامية، وأعلنت خلافتها على العالم الإسلامي ، كانت آن ذاك من أكبر دول العالم ، فقد زادت مساحتها على عشرين مليون كيلومتر مربع[1] .

واشتد اهتمام الخلفاء العثمانيين بالأمة الإسلامية، وعملوا على توحيدها ، وعلى نشر الإسلام ، وشجعوا على الدخول فيه ، وتوسعة رقعة البلاد الإسلامية ، ووقفوا في وجه الصليبيين بل تغلغلوا في بلادهم ، وهذا بارز في فترة قوة الخلافة في عهد الخليفة الأول : سليم الأول ، وسليمان القانوني (٩٢٣ - ٩٧٤ هـ)[2] . واستمر حرص الخلفاء ودفاعهم عن الإسلام والمسلمين طيلة فترة الخلافة ، وكانت محط أنظار المسلمين حتى ممن كانوا خارج حدودها ، بصفتها مركز الخلافة ، وبصفة حاكمها خليفة المسلمين ، وقد كان السلطان عبد الحميد - الذي أقصي عن الخلافة، أثر الانقلاب التركي - من ذوي التدين والغيرة على الإسلام ، وكان له نشاط في الدعوة الإسلامية ، وإن في خطابه الموجه إلى الشيخ محمود أبو الشامات - بعد تقصيته عن الخلافة - ما يعطي تصويراً حياً عن حالته ، وجهوده في خدمة الأمة الإسلامية . ومما جاء في خطابه : « . . . ثم

---

(١) انظر : التاريخ الإسلامي - العهد العثماني لمحمود شاكر ص: ٢٧ - ٣١ ، العلمانية لعبد الكريم مشهداني ص ٢١ - ٢٦ .
(٢) انظر : التاريخ الإسلامي - العهد العثماني ص: ٩٩ - ١١١ .

أعرض لرشادتكم على سبيل التاريخ ، وليعلم عند ذوي العقول السليمة أمثال سماحتكم ، أنني ما تركت الخلافة الإسلامية إلا للضغط على من قبل الجمعية العليا لجماعة الاتحاد (جون تورك) وقد عرضوا على مبلغاً قيمته، مائة وخمسون مليون ليرة انكليزية ذهبية ، لأبيعهم أرضاً في فلسطين يسكنها اليهود فلم أقبل ، وإني خدمت الملة الإسلامية مدة تفوق الثلاثين سنة لم أسود خلالها صحيفة المسلمين ، ولا صحيفة آبائي وأجدادي من الخلفاء العثمانيين ، لذلك . . . فاتفقوا حالاً على خلعي ونفيي إلى سيلانيك فقبلت بذلك وحمدت الله على أني ما خططت قلماً ولا حرفاً يسوء الدولة الإسلامية العثمانية وحصل ما حصل، والحمد لله على ذلك، وفهمكم كفاية»[1] .

هذا الصمود وهذه القوة الشخصية من خليفة ولي الخلافة في أواخر عصر ضعفها ، فقد سقطت الخلافة بعد عهده بعشر سنوات تقريباً ، وقد نطق خطابه بما لاقاه من المساومة ومن الضغوط ، وكيف أن إيمانه منعه من خيانة دينه وغش رعيته ، ولو كان ثمن هذا هوان نفسه وذهاب عزه وجاهه ، ولا يدرك صعوبة هذا الموقف ، ووفاء صاحبه إلا العقلاء أهل الوفاء .

وإذا كانت هذه مواقف الخلفاء حيال بلاد المسلمين في عصر الضعف ، فكيف هي في عصر القوة ؟ وكيف مع هذا

---

(١) تاريخ الدولة العثمانية للدكتور علي حسون ص ٢٠٧ . وانظر : التاريخ الإسلامي العهد العثماني ص: ٤٠ .

يستسيغ مسلم أن يطلق على أولئك مستعمرين ؟ إن تسمية الخلافة العثمانية استعماراً هي وليدة أفكار المصنوعين من القوميين الذين عملوا مسخرين لتضييع دينهم وأوطانهم . يقول محمود شاكر : « لقد سجل النصارى الأوروبيون عن العثمانيين كل سلبية ، وجالت بها أقلامهم وحلقت بها أفكارهم ، وأهملوا كل إيجابية ،أو تجاهلوها ونسوها فلم ينظروا إلا بعين البغض فلم تبدِ لهم إلا المساوىء . ولكي يثيروا عليهم بقية المسلمين عدوا الحكم العثماني استعماراً ، دخل إلى البلاد بالقوة ، وفرض سلطته بالقسوة ، ودعوا العرب خاصة إلى مناهضة العثمانيين . فالخلافة ـ حسب دعواهم ـ يجب أن تكون محصورة بالعرب لا اجتهاداً منهم وعلماً ، ولا دراية وفقهاً ، وإنما حسداً وكرهاً للمسلمين كي يتحرك بعضهم على بعض ، ويقاتل بعضهم بعضاً ويتمرد المحكوم على الحاكم باستمرار ، ويهنأ لهم بعدئذٍ العيش ، وينعمون ، ويذلون المسلمين ،ويحكمون ديارهم ، ويتحكمون بهم .

لقد عدوا كل حركة على الحكم العثماني نصراً للنصارى ، ونعتوا تلك الحركة بالإخلاص ولو كانت من قطاع الطرق والأشقياء . . . ووصفوا كل ثورة على العثمانيين بالوطنية ، وخاصة إن كانت من قبل غير المسلمين مثل الفئات الخارجة عن الإسلام . . . وأفضل من ذلك إن كانت من الحركات التي ترتبط بالصليبية الأوروبية »[1] .

(١) التاريخ الإسلامي العهد العثماني ص: ١٤ .

هذا دأب العـدو لا يـألوا جهـداً في السعي لإفساد عقـائد المسلمـين وتفريق كلمتهم وصـدق الله القـائـل : ﴿ **ولن تـرضى عنك اليهود ولا النصـارى حتى تتبع ملتهم قـل إن هدي الله هـو الهدي ولئن اتبعت أهواءهم بعـد الذي جاءك من العلم ما لـك من الله من ولي ولا نصير** ﴾[1] .

وليس غـريبـاً من العـدو أيـاً كـان أن يسلك شتى الـطرق لإضعـاف عـدوه ، لكن الغـريب حقـاً أن يتبـع المسلم عـدوه ويكـاتفه مستعينـاً بـه عـلى أخيـه ، وينعق بمـا يـوحيـه إليـه دون وعي ، ويرى في ذلك نصرة له وفلاحاً .

تلك حال دعاة القومية الـذين قوضت عـلى أيديهم خـلافة المسلمـين وتشتت بلادهم . أمـا المسلمـون فكـانـوا ينـظرون إلى الخليفـة العثماني نـظرة شرعيـة ، ويعدون أنفسهم رعيـة له ، ومـا حصـل للمسلمين من ضعف ديني عـام بانتشـار الخرفـة تبعاً لقلة العلم ، وتخلفٍ في كثـيرٍ من النواحي المـادية أثنـاء هذه الخـلافـة يرجعونه إلى عوامل كثيرة :

منهـا : ما سبق الخـلافة من تشقق البلاد، وافتراقها، وكثرة النزاع بين أقطارها .

ومنها - صعوبـة الانتقـال بـين أطـراف الخـلافـة ومن ثم التـأخـر في السيـطرة عـلى مـا يحصـل فيهـا من أسبـاب الـدمـار والفرقة .

---

(١) سورة البقرة آية (١٢٠) .

ومنها ـ انشغال الخلافة بمجابهة دول الكفر التي تسلطت عليها ونابذتها العداء . وغير ذلك .

لهذا فلا يسوغ اعتبار الحكم الإسلامي استعماراً ، وتفسير ما يحصل من الأحداث السيئة التي مرت بها البلاد الإسلامية بأنها كانت متعمدة ، وإنما فسرها بهذا وروجه أعداء الإسلام سعياً لتمزيق الأمة الإسلامية ، ومن ثم السيطرة عليها ، وهو ما كان عقب سقوط الخلافة العثمانية ، على غالب البلاد الإسلامية وهو الاستعمار بمعناه الصحيح حين استولت دول الكفر على ديار المسلمين وامتصوا خيراتها ، واستذلوا أهلها ، ولم يتخلصوا من ذلك إلا بعد جهود مضنية وتضحيات بالغة .

وفي الختام أقول : إنّ الراعي مسؤول عن رعيته كما هو هدي النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي لا ينطق عن الهوى . والخلافة العثمانية ملومة على كل ما جرى للعالم الإسلامي باعتبارها السلطة الحاكمة المسؤولة عن رعيتها في حفظ دينهم والسعي لإصلاح دنياهم . وقد وقع هذا الحكم الإسلامي في أخطاء كثيرة كانت دافعة لبعض علماء المسلمين للإصلاح ، دعوة ، ثم جهاداً ، في مناطقهم ، ومن يليهم في داخل الخلافة ، متجاهلين رأي سلطانها في ذلك نتيجة تقصيرها في هذا الجانب ، حيث لم تولِ العلم والتعليم أي عناية ، فعمّ الجهل ، وسادت الخرافة بلاد المسلمين ، مما حدا بجملتهم إلى نسيان الجوانب الإيجابية في الخلافة آن ذاك . فلم يناصروها حين استغلت تلك الثغرات من أعداء الإسلام لتقويض الخلافة ، بل دعا ذلك كثيراً منهم للسعي ضدها ، والخلاص منها .

٣ ـ جزئيات خاصة :

أ ـ في الرهبانية[1] عند المسيحيين :

جاء ضمن الفصل الثامن ـ اتجاهات التربية في مجتمعات العصور الدينية تحت عنوان : تحليل ومقارنة . الفقرة ـ أولاً ـ التربية المسيحية : القول : « من المعلوم ، أن الديانة المسيحية تهدف إلى النقاء الروحي والكمال البشري ، والبعد عن مناهج الدنيا والإعداد للآخرة ، فهي مقر الرهبنة والعزلة ، والزهد في سبيل الخلاص الروحي ، وإلى هذا هدفت التربية المسيحية إلى قهر رغبات الجسد ، وإعلاء الصفات الروحية والتبشير بالإيمان والأمل في حياة مستقلة . . . »[2] .

عبارات المؤلف هنا تتحدث عن الديانة المسيحية ، والحالة الموصوفة هي واقع المسيحيين ـ لا الديانة من حيث هي ـ وكان على المؤلف التفريق بين الحق الذي هو دين عيسى ـ

---

(١) الرهبانية : مصدر الراهب ، والاسم الرهبانية . وأصلها من الرهبة ثم صارت اسماً لما فضل عن المقدار ، وأفرط فيه . يقال هي : غلو في تحمل التعبد من فرط الرهبة . انظر المفردات ، ص ٢٠٤ ، ولسان العرب ١ /٤٣٧ ، مادة (رهب) فيهما .

(٢) اتجاهات التربية عبر العصور ص ١٦٧ .

عليه السلام ـ والواقع المحرّف الذي عليه النصارى .

ووجود الرهبانية في الديانة المسيحية متأخر أُبْتُدِعَ بعد عيسى ـ عليه السلام ـ وفي ذكر أسبابه وصفاته أقوال ذكرها المفسرون عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون** ﴾[1] .

وقد أوضح المفسرون في تفسير هذه الآية أن ما عليه النصارى من الرهبانية بصفاتها المختلفة ليس منها ما كان شريعة لعيسى ـ عليه السلام ـ وأنه إنما كان داعياً إلى الزهد في الدنيا والاستعداد للآخرة بأوامر وتعليمات ليست هي ما يدعيه أهل الرهبنة بنص القرآن[2] .

ولقائلٍ أن يقول : إن صاحب كتاب اتجاهات التربية يتحدث عن التربية المسيحية وهذه صورتها بحسب واقعهم .

وأقول : نعم : إن الحديث عن التربية المسيحية . لكن المفهوم من الأسلوب غير ذلك ، وكان الواجب إبراز الحقيقة ،

---

(١) سورة الحديد آية (٢٧) .

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري ٤ /٦٩ ، والتفسير الكبير للرازي ٢٩ /٢٤٥ ـ ٢٤٧ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ /٢٦٢ ـ ٢٦٦ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٨ /٥٤ ـ ٥٧ ، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٧ /٤٢١ ـ ٤٢٧ .

أو عدم نسبة ذلك الوضع المنحرف إلى الديانة نفسها ، بل يُقال إن الديانة المسيحية الحقة لا يمثلها هذا الوضع بل هو انحراف الزموا به أنفسهم ولم يرعوه حق رعايته ، كما أخبر الله عنهم ، فالخطأ في الابتداع أولاً وفي عدم الوفاء به على ما التزموه ثانياً . ومقتضى الأمانة العلمية إعطاء الصورة كما هي واقعاً وتطبيقاً ، وكما علمنا بأن تطبيق الرهبانية خطأ بعد كونه بدعة . والله أعلم .

ب ـ رجال الدين في الإسلام والمسيحية :

جاء ضمن الفصل الثامن ـ اتجاهات التربية ـ تحت عنوان : تحليل ومقارنة القول : « ... أن المعلمين في المجتمعين (المسيحي والإسلامي) كانوا من رجال الدين ولا سيما في العصور الأولى ، ولم يكن هناك تخصص بالمعنى المعروف في عصرنا الحاضر ، ولكن رجل الدين كان يجمع بين علومه وعلوم أخرى في معظم العصور »[1] .

والإشكال هنا ليس ذا شأن عظيم ، فقد يكون له محمل صحيح بالنسبة لحال المعلمين المتحدث عنهم ـ على اعتبار الالتزام الديني ليكون له أثره على المتعلمين . لكني رغبت التنبيه على أمرٍ قد يفهم على غير وجهه الصحيح بالنسبة لحال المسلمين ، حملاً على وضع منحرف عند النصارى حيث ابتدعوا

---

(١) اتجاهات التربية ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

الرهبانية ـ كما سبق ذكره قريباً ـ وكان أولئك الرهبان على حالة مغايرة لحالة الآخرين من أفراد النصارى فسموا رجال الدين ؛ لأنّ وضعهم منعزل عن التعلق بأمور الدنيا ، وهو انحراف بلا شك ، رهبانية ابتدعوها كما أخبر الله ـ تعالى ـ فكان إطلاق ذلك بالنسبة لمن كان من المسلمين غير صحيح ، فلا رهبانية في الإسلام وواجب على كل مكلف النطق بالشهادتين ، وفي ذلك عصمة الدم والمال إلا بحقها كما في الحديث المتفق على صحته : « أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة . . . الحديث »[1] . وهي أركان الإسلام اللازمة للجميع اعتقاداً وعملاً ، فالعقيدة هي الأصل الذي تبنى عليه الشريعة ، والإسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى فلا يكون مسلماً عند الله ـ تعالى ـ من اعتقد ولم يعمل ، ولا من يعمل بلا عقيدة[2] .

و إطلاق رجل الدين على بعض أفراد المسلمين دون الآخرين ،على معنى أن عليه واجباً دينياً ليس على غيره ، غير صحيح ،وليس هذا من الإسلام . وكل الناس أمام أحكام الإسلام على حد سواء ، خطابه لجميعهم وعليهم العمل لإصلاح دنياهم والاستعداد لأخراهم لا فرق في ذلك بين العامي والمتعلم من حيث أصل الوجوب ، لكن يأتي الاختلاف

---

(١) انظر تخريج الحديث ص : (٩٦) .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة لمحمود شلتوت ص ١١ .

بعد ذلك بحسب حال كلٍ ، فعلى العالم من الواجب ما ليس على من دونه ، وله من المنزلة ما ليس لسواه . كما قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور** ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ **أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه . قل هل يستوي الذين يعلمونَ والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾[3] . والنصوص الدالة على ذلك كثيرة جداً فالتميز بالكسب ، يقول تبارك وتعالى لمعلمي العلم لأممهم : ﴿ **ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون** ﴾[4] .

والأنبياء هم القدوة لأتباعهم وأمرهم بهذا المنهج التربوي في التعليم أمر لأتباعهم كذلك ، بأن يكونوا حكماء فقهاء يمتثلون للعلم قولاً وعملاً ويربون عليه غيرهم[5] .

---

(١) سورة فاطر آية (٢٨) .

(٢) سورة العنكبوت آية (٤٣) .

(٣) سورة الزمر آية (٩) .

(٤) سورة آل عمران آية (٧٩) .

(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤ /١٢١ ـ ١٢٣ ، تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ /٥٤ ، ٥٥ . وفتح الباري لابن حجر ١ /١٦١ ، ١٦٢ . وتفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة للدكتور عبد العزيز الحميدي ١ /١٧٢ ، ١٧٣ .

ج ـ الموسيقى في المسيحية :

في الفصل الثامن ـ اتجاهات التربية . . . تحت فقرة « أ » اتجاهات التربية المسيحية ـ ضمن الحديث عن المؤسسات التعليمية في العصر القبطي ـ قال في حديثه عن الكنيسة : « . . . إن الصلوات والقداسات التي كانت تُمارس في الكنيسة بما فيها من موسيقى ، جمعت بين ألحان الفرح والحزن والخشوع مما جعل منها وسيلة فعالة لتربية الوجدان »[1] .

وأقول : إنّ الحديث عن كون هذا الأمر موجوداً عند المسيحيين ليس محل نزاع ، إنّما النزاع في الحكم بأن تلك الألحان التي جمعت بين ألحان الفرح، والحزن، والخشوع ، وسيلة فعالة لتربية الوجدان ، وكان على المتحدث ، إن كان حاكياً هذا الحكم عن النصارى ، أن يقول : على حد زعمهم ، أو أن يعلق على ذلك في هامش الكتاب بما يوضح عدم تسليمه بالحكم، ويذكر الصواب ، أو يشير إليه ، ولما لم يحصل شيء من ذلك، فلي سؤالان:

الأول : هل ما ذكره، هو من دين النصارى حقاً ، أو من الانحرافات التي طرأت على النصرانية ؟

الثاني : هل في الموسيقى ما يربي الوجدان ؟

---

(١) اتجاهات التربية عبر العصور ص ١٤٨ .

وسأكتفي بجوابي على هذين السؤالين ، جواباً على الدعوى . فأقول في الجواب الأول :

لقد ذكر صاحب كتاب اتجاهات التربية قبل ذلك : أن المسيحية أخذت من بداية القرن الرابع الميلادي في تنظيم عقائدها تنظيماً يتفق مع المنطق والعقل مستعينة في ذلك بالفلسفة اليونانية[1] .

والمعروف أن أهل الموسيقى هم الفلاسفة الذين يرونها ضرورية لحياتهم ، ويمارسونها عملاً وتعليماً واستمتاعاً . وجعلها مما تزكوا به النفوس، هو من تعليمات أرسطو ، وأتباعه من الفلاسفة المشائين[2] . فإدخال ذلك في ديانة النصرانية على هذا هو من التنظيم - على زعمهم - الذي أدخلوه في دينهم بعد ثلاثة قرون من رفع نبيهم تقريباً . فهو - يقيناً - دخيل على الدين ضمن ما أُدخل في النصرانية إبَّان عقد المجامع التي يقررون فيها ما يريدونه ديناً وعبادة ، ويرفضون سواه من أمور ، وفي تلك الأفعال ما يناقض بعضه بعضاً ، وسبقت الإشارة إلى هذا[3] .

وحول تربية الموسيقى للوجدان أقول : الله - سبحانه

---

(١) انظر : ص ١٠٩ من الكتاب المذكور .

(٢) انظر : مجموع الفتاوي لابن تيمية ١١ / ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ورسالة في السماع والرقص لمحمد المنبجي ضمن الرسائل المنيرية المجلد الثاني ٣ / ١٧٤ .

(٣) انظر ص :(٩٠، ٩١).

وتعالى ـ خلق الناس لعبادته، يبتليهم أيّهم أحسنُ عملاً فيها، فهيأهم تهيئة يتمكنون بها، من الاستجابة انقياداً، أو الامتناع رفضاً بما مكنهم به تعالى من العقل، والقدرة، والإرادة، وركب فيهم غرائز مختلفة حباً وكرهاً، وبهذا يظهر معنى التكليف، واستحقاق الجزاء عليه، بالجنة، أو النار، المحفوفتين بالمكاره، والشهوات.

روى الإمام الترمذي بسنده عن أبي هريرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال: انظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، قال: فرجع إليه، قال: فوعزّتك لا يسمع بها أحد إلاَّ دخلها، فأمر بها فحفت بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد. قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلاَّ دخلها»[1].

---

(١) سنن الترمذي ـ كتاب صفة الجنة ـ باب ما جاء حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ٤ /٦٩٣ ، ٦٩٤ . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وانظر : سنن أبي داود ـ باب خلق الجنة والنار =

ومن المعلوم أن في الأنغام الموسيقية ما يستهوي النفوس إذا عايشته ، يقل ويكثر بحسب الطباع ، ولما لم يخلق الإنسان عبثاً كانت معرفة حكم ذلك الأمر المرغوب ، ضرورية ليقف منه المكلف موقفاً صحيحاً ، حيث يثاب على المشروع ، ويعاقب على المحذور ، وقد أحل العليم الحكيم للناس الطيبات وحرّم عليهم الخبائث قال سبحانه : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . . .** ﴾[1] .

ولم يترك ـ بحمد الله ـ تصنيف الموسيقى لا جتهاد العقول بكونها من الطيبات ، أو من الخبائث بل جاء النص بتحريمها ، وعليه فهي خبيثة ضارة .

روى الإمام البخاري بسنده عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : حدثني أبوعامر ، أوأبومالك الأشعري ، والله ما كذبني سمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر ، والحرير ، والخمر ، والمعازف . . . الحديث »[2] .

= ٤ / ٢٣٦ ، ٢٣٧ . وسنن النسائي ـ كتاب الأيمان ـ باب الحلف بعزة الله ـ تعالى ـ ٧/٣،٤ ، ومسند الإمام أحمد ٢ /٣٣٣ ، ٣٥٤ ، ٣٧٣ .

(١) سورة الأعراف آية (١٥٧) .

(٢) صحيح الإمام البخاري ـ كتاب الأشربة ، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه ٧ /١٣٨ .

ووردت أحاديث أخرى في ذمها ، وذكر أنها تنبت النفاق في القلب ، والتحذير من استحلالها[1] ، واعترض على هذا بعض العلماء ورأوا خلاف ذلك ، ولم يحتجوا بحديث يبيح ذلك ، لكن رأوا عدم صحة أحاديث المنع . يقول الإمام الشوكاني بعد ذكر الأقوال ومناقشتها : « . . . فلا يخفى على الناظر أن محل النزاع إذا خرج عن دائرة الحرام ، لم يخرج عن دائرةالاشتباه ،والمؤمنون وقافون عند الشبهات كما صرح به الحديثالصحيح : ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه »[2] .

وأقول : إن سماع الموسيقى قد يثير في الإنسان نشوة تؤدي به إلى الخروج عن طوره إذا استسلم لها ، ووافقت ايقاعاتها نبضات قلبه ، فيغفل عمن حوله فيتحرك منقاداً بحسبهافرحاً ،أو حزناً ، وينمو ذلك ويزداد تبعاً للاسترسالوالديمومة ؛لأن تلك الأنغام إذا تفاعل معها القلب ازداد نبضة وقوي بحيث يزيد في عمله عن احتياج الجسم في وضعه المعتاد فتسهل مهمة الشطان

---

(١) انظر : مسند الإمام أحمد ١ /٣٧٤ ، ٢ /١٥٨ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ . وسنن الإمام الترمذي ـ كتاب الفتن ـ باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف ٤ /٤٩٤ ـ ٤٩٦ ، وكشف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع لابن حجر الهيثمي ص ٤١ ـ ٤٧ ، ونيل الأوطار للشوكاني ٨ /٢٦٠ ـ ٢٦٣ .

(٢) نيل الأوطار ٨ /٢٧١ .

في استغلال ذلك الوضع - اتساع مجاريه في الجسم - بوساطة قوة نبض القلب ، وبسبب الحرارة الناتجة عن ذلك ، مما يورث لأصحابه سكراً لأرواحهم أعظم من سكر الخمر ، فهي تسبب استرخاءً للجسم ، والموسيقى تعطي خفة تفقده اتزانه ، والواقع المشاهد يؤيد هذا ، فنرى الشيخ المسن الذي لا يستطيع الصلاة قائماً إذا كان من المتلذذين بالسماع يقف ويتمايل وقتاً طويلاً ، ويحرك أجزاء من جسمه وكأنه في أوج شبابه ، وإن كان التفسير المادي يعجز عن إعطاء البرهان المقنع لمن لم يشاهد مثل ذلك ، وإن تفسير صوت الشيطان المذكور في قوله تعالى : **﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾**[1] .

بالغناء والمزامير واللهو[2] ، لأكبر دليل على أن هذا الصوت يستفزز من لم يحكمه الأمر والنهي المرتبط بالابتلاء ، ومن ليس كذلك فلا ينقاد لما نهي عنه ولو

---

(١) سورة الإسراء آية (٦٤) .

(٢) انظر : التفسير الكبير للرازي ٢١ /٦ . والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠ /٢٨٨ ، ٢٩٠ . مجموع الفتاوي لابن تيمية ١١ /٦٤١ ، ٦٤٢ . وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥ /٩١ ، وأضواء البيان للشنقيطي ٣ /٦٠٧ .

كان ميل نفسه إليه .

وإن الصيام ليعطي دليلاً على صدق ما قدمته فنتائجه بعكس ذلك من ضعف وازع الشر تبعاً لحركة القلب الخفيفة التي يضيق معها مجرى الشيطان في الجسم .

وإنني بعد ما قدمته أرى أنّ في الموسيقى ما يربي الوجدان لكن في الجانب السيىء ، بحيث يظهر ذلك في اللهو الذي هو موطنها فتقود إلى الفساد ، وإلى ما يخالف الدين ، ولا يرى ذلك مطلقاً في جوانب الخير ، ونفع الذات ، أو نفع المجتمع . والله أعلم .

ثالثاً : أمور جاهلية :

ما صنفته تحت هذا العنوان : أمور رآها صاحب كتاب « اتجاهات التربية عبر العصور » مفاخر للمصريين ، من غير تحرٍ في صحة الدعوى ، أو من غير تحقيقٍ في اعتبارها مفاخر .

الأول ـ فخر بغير حق :

١ ـ جاء في معرض الحديث عن العامل الثقافي الجغرافي ضمن فصل تاريخ التربية ـ القول : « فقد كان صفاء السماء في مصر وخلوها من السحب والغيوم معظم أيام السنة من دواعي اهتمام الفراعنة بالعلوم الكونية مثل علم الفلك إلى جانب اتخاذهم بعض كواكب السماء ـ وبخاصة الشمس ـ آلهة يعبدونها ، وكان أول من اشتغل منهم بالفلك : كهان هليوبوليس ، الذين توصلوا إلى التقويم الشمسي (حوالي عام ٤٢٤٢ ق . م) وهو أول التقاويم المضبوطة في العالم منذ فجر التاريخ وقد تفردت مصر في ذلك الوقت بهذا التقويم دون سائر أقطار الأرض . . . إلخ »[١] .

٢ ـ جاء تحت عنوان : ملامح المجتمع المصري القديم ـ تحت

(١) اتجاهات التربية ص ٣٣ .

الفقرة أولاً : الديانة وفلسفة الحياة ـ ضمن الفصل الرابع ـ اتجاهات التربية في المجتمع الفرعوني، القول : « والحقيقة أن المتصفح لتاريخ مصر القديمة يجد أن المصريين القدامى على مر العصور كانوا يؤمنون بالإله الواحد وإن تعددت صوره . . . وأن عقيدة التوحيد قد سرت من مصر في صورة من الصور إلى بلاد المشرق ، ومنها بلاد البحر الأبيض ، ووادي الرافدين »[1] .

٣ ـ في حديثه عن التراث الإنساني بالنسبة للإغريق ضمن الفصل السابع تحليل ومقارنة لاتجاهات التربية في المجتمعات القديمة قال :

« والمؤرخون من بلاد يونان ، وعلى رأسهم أبو التاريخ « هيرودوت » يشهدون للمصريين بالسبق في مضمار المعرفة ، ويعترفون لهم بالعقل الخلاق ، والفكر الرفيع والبصيرة النافذة ، ويرون فيهم أئمة في طبيعة الأشياء ، وأصحاب المقدرة على كشف ما غمض من أسرار الكون ، لأنهم من أغزر الناس علماً ، وهم أول من عرف السنة الشمسية ، ووضعوا تقويماً تفوقوا به على اليونانيين . . . وأول من سن السُّنّة التي تحرّم مباشرة النساء في المعابد ، ودخولها بعد ذلك دون اغتسال ، وهم أكثر الشعوب مراعاة للنظافة ، وكذلك لم ينس المؤرخون والفلاسفة الإغريق أن يذكروا بعض علوم المصريين التي أخذها عنهم اليونانيون ،

(١) اتجاهات التربية ص ٥٨ . والفكرة الثانية نقلاً عن العقاد .

ومنها علم المساحة والحساب والهندسة والفلك والرسم والكتابة التي اعتبروها مصرية النشأة »[1] .

وبعد تلك النصوص أقول : أنا لست ضد محبة الإنسان وطنه ، أو ميله إلى قومه ، لكن أن ينسيه ذلك ما هو أهم ، وهو الصدق فيتجاهل ما يخالف تلك الرغبة ، مما قد يكون تجاهله ضاراً بدينه ، ومساهماً في طمس الحقيقة وهذا ما لا يرضاه أهل العقول الصريحة .

ولتقريب ما اشتملت عليه النصوص السابقة من نقاط تستدعي التنبيه أقول :

في النص الأول :

١ ـ ربط العبادة ، واتخاذ الآلهة بالأسباب المحسوسة .

٢ ـ جعل المصريين أول من توصل إلى التقويم الشمسي ، أول تقويم مضبوط في العالم منذ فجر التاريخ ـ على حد زعمهم ـ.

وفي النص الثاني :

١ ـ إيمان المصريين بإله واحد متعدد الصور .

٢ ـ سريان عقيدة التوحيد من مصر إلى بلاد المشرق ، وبلاد البحر الأبيض ، ووادي الرافدين .

---

(١) اتجاهات التربية ص ١٣٦ ، ١٣٧ ، وانظر ص ١٢٥ ، من الكتاب المذكور .

وفي النص الثالث :

١ ـ جعل المصريين أول من عرف السنة الشمسية ، وسرد صفات كثيرة يرى فيها تميز المصريين .

٢ ـ اعتبار المصريين أول من سنّ تحريم مباشرة النساء في المعابد وتحريم دخولها بعد ذلك دون اغتسال .

إن مجموع ما اشتملت عليه تلك النصوص أربع نقاط : فالأول من النص الأول ومن النص الثاني موضوعهما واحد ، وكذلك الثاني من الأول والأول من الثالث .

وفيما يخص النقطة الأولى « عبادة المصريين واتخاذ الآلهة » هو أمر مرتبط بنشأة التدين ، وقد سبق الحديث عنه[1] . ولا داعي لإعادته فما قلته هناك هو الرد هنا على هذا التفسير لعبادة المصريين ، وأزيد هنا ما يلي :

الإيمان بإله واحد ينافيه تعدد الصور التي يذكرونها ، واعتبار تلك الصور آلهة مظاهر انحراف عن الإيمان بالإله الواحد وهذا هو الشرك ، حيث لم تكن تلك الصور تعني صفات إله واحد بقدر ما تعني من معبود يتجهون إليه فترة ، ويتركه من يأتي بعدهم ، أو أن يكون لبعضهم إله وللآخرين إله ، أو آلهة بحسب طبقاتهم ، أو نحو ذلك ، وكل هذه تنافي الوحدة كما تنافي الحق ، فالإله الواحد إله لجميع الخلق ،

---

(١) انظر: ص: (٦٨ ـ ٨١).

وصفاته اللائقة بكماله لا يعبر عنها بآلهة ، كما لا تصور صوراً تعبد فهذه مظاهر وثنية .

وما هو في مصر في تلك العصور انحراف عن الحق خلال فترة من الرسل لم يصلوا إليه بعقولهم ، وليس منقبة لهم إنما هو خروج عن الحق ، وما بقي فيه من صواب ، إن كان هناك بقية ، فهي آثار الأنبياء السابقين ، يقول تعالى : ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾[1] . وقد سبق الحديث عن هذا الموضوع[2] .

وأما النقطة الثانية فتتضمن أموراً :

الأمر الأول : اعتبار المصريين أول من توصل إلى التقويم الشمسي وأنه أول تقويم مضبوط في العالم .

وأقول : اعتبار المصريين أول من توصل إلى هذا التقويم ، أمر يجعلنا نتساءل عن المصريين أصحاب هذا الاكتشاف - على حد زعمهم - أي جنس هم حتى نفتخر بهم ؟

هل هم سلف الأقباط ؟ أو هل هم المسلمون العرب الذين يعتزون بهذه النسبة ؟ أو هل هم جنس آخر لا هذا ولا ذاك ؟

وأما موضوع ثبوت ذلك ، أو عدمه ، فأمر يحتاج إلى

---

(١) سورة فاطر آية (٢٤) .

(٢) انظر ص: (١٢، ٤٠، ٤١، ٨٥ - ٨٧).

دليل مقنع وكل ما يُقال خبر عن حال ، لا تيقن سبق .

والخطير في الأمر اعتبار هذا التقويم المكتشف ، أول تقويم مضبوط ، وقائل هذا لا يخلو من ثلاث حالات :

إما عدم العلم بالتاريخ البشري الذي ثبت بالأخبار القطعية ، وإما عدم اعتبار تلك الأخبار أمراً مسلماً ، وإما استسلاماً لآراء الغير دون وعي ، أو لموافقتها هوى نفسه .

وكل تلك الأحوال في حق مسلم يؤرخ للتربية ؛ خطيرة وأي خطيرة ، فالتاريخ البشري الذي يحمل رداً على هذه الدعوى ، هو ما سبق ذكره من قصة خلق آدم ـ عليه السلام ـ وتدينه ، وبقاء ابنائه بعده مدة طويلة على ذلك الدين ، ثم تتابع بعث الأنبياء في كل الأمم[١] .

وأما الحالة الثانية فهي حال الكفار الذين لا يصدقون بالرسل والكتب وهم : إما من يرون قدم العالم ، ونفي أن يكون له مدبر ، ويسندون الإيجاد إلى الطبيعة . وإما من ليسوا كذلك ، بل يقرون بالخالق المدبر لكن يرون ، أن الإنسان الأول لم يكن متديناً بدين التوحيد إنما كان يتعلق بمظاهر خرافية ، ثم تطور في عبادته إلى أن وصل إلى التوحيد ، وهذا ما سار عليه صاحب الكتاب وسبق الرد عليه .

أما أصحاب الحالة الثالثة : فهم من لا يثقون بأنفسهم فلا يحملون فكراً استقلالياً ، يسير حسب قناعة الإنسان بسلوكه

---

(١) انظر ص: (٨١ ـ ٨٩).

ودوره في الحياة ، أو من تنسيهم عواطفهم الحق ، أو يتناسونه تبعاً لها .

والصريح في إبطال الدعوى : قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج** ﴾[1] . وقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾[2] . وقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقومٍ يعلمون** ﴾[3] .

في الآيات الكريمات أن الأهلة مواقيت ، وأنّ الله قدر القمر منازل لنعلم السنين والحساب ، وأنه وضع هذا النظام الذي يدور توقيته على اثني عشر شهراً لأهل هذه الأرض التي جعلت مقر البشر، وهو الصالح والمناسب لجميعهم ، حيث إن الله ـ تعالى ـ قد وضع عليه نظام العالم الأرضي وما يتصل به من نظام العوالم السماوية بوجه محكم ودقيق ربط الله ـ تعالى ـ به مواسم العبادة من الحج والصوم ، وحرمة بعض الأشهر ونحو ذلك ، منذ خلق السموات والأرض ، وأنزل ذلك على

---

(١) سورة البقرة آية (١٨٩) .

(٢) سورة التوبة آية (٣٦) .

(٣) سورة يونس آية (٥) .

أنبيائه في كتبه المنزلة ، وتسميتها على ما ذكر الله ـ تعالى ـ اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم هو الحساب الصحيح والعدد المستوفي وهو الشرع المستقيم[1] .

ولا شك بأن الطعن في ضبطه، أوفي قدمه أمر في غاية الخطورة بالنسبة للمسلم فقد يكفر، أو يفسق بذلك على حسب حاله .

ويدرك المتأمل علاقة السنة القمرية بحكمة خلق الإنسان .

وأما السنة الشمسية فارتباطها في المصالح الدنيوية ظاهر لضبط الأوقات فيها ، بالنسبة لفصولها ، لما يلزم على ذلك من أوقات البذر والحصد ، ونحو ذلك .

ويدرك البصير أن مصالح الإنسان الأخروية ، وتحديد أوقات الزرع للآخرة أهم من معرفة أوقات الزرع للدنيا مع عدم فواته على حساب السنة القمرية ، فتحصيله متيسر بطرق كثيرة يعرفها المهتمون بالحساب .

الأمر الثاني ـ مناقب المصريين وتميزهم :

ليس الغرض من التنبيه على هذا الموضوع هنا هو التقليل من شأن المصريين ـ فليسوا أقل من سواهم ـ لكن اعتبار

---

(١) انظر : التفسير الكبير للرازي ١٦ / ٥٠ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨ /١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٧ . وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١٠ / ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ .

تميزهم ، ثم التغريد بمناقبهم ، أمر يحتاج إلى دليل مقنع ، ولا أظن أن أهل قطر من بني البشر يتميزون عن بني جنسهم لمجرد تلك النسبة ، لكن قد يتهيأ لأمة ما لا يتهيأ لسواها ، فيُعدُّ ذلك تميزاً لأفرادها ،وليس كذلك ، وبِنظْرَةٍ بسيطة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، والذي ينتمي سكانها إلى أقطار مختلفة من جميع أنحاء العالم ، وكان لهذا الاتحاد ما نراه من القوة المادة ، والمقدرة التقنية ،ما يوحي إلى بعض الناس بأن الإنسان الأمريكي متميز عن غيره من البشر ، والواقع يشهد بغير هذا فتلك العقول التي أثمرت في هذا المجتمع هي من بلادٍ مختلفة لم يتهيأ لها في بلادها ، أو في حال تفرقها ما يخدم البشرية ، وكان لاجتماعها ذلك الأثر المفيد ، لا لجنسها فهم من أجناس مختلفة كما أشرت .

الأمر الثالث ـ اعتبار الكتابة مصرية النشأة :

هذا الحكم فيه نظر ، ولمدعيه الإتيان ببينة جلية ، وليس هذا مما يثبت من طريق واحد لارتباطه بتحديد استيطان البشر على ظهر الأرض ، ونزول الوحي من الله ـ تعالى ـ ،ولي على تلك الدعوى أكثر من تساؤل:

هل مصر هي أول الأجزاء المعمورة من الأرض ، قبل الطوفان ،وبعده ؟

وهل الأمم السابقة التي استوطنت ما يسمى الآن بالشرق الأدنى ـ لم تكن تعرف الكتابة ؟

وهل تلك الأمم السابقة عاشت بلا وحي ، وبلا تعليم ؟

ورأيي أنّ الجواب على تلك الأسئلة بالنفي ، حيث لم يرد أنّ آدم ـ عليه السلام ـ كان في مصر . وكذلك نوح ـ عليه السلام ـ[1] ، وهذا ما ترد به تلك الدعوى ، وفوق هذا قول الله ـ تعالى ـ : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾[2] .

إنّ في الآيات الكريمات ما يرد على مزاعم المؤرخين ، فالإنسان المعلم بالقلم ؛ النوع من أوله . ما لم يرد التخصيص ، ثم إنّ ذكر القلم واللوح المحفوظ ، وتدوين الأعمال ، ونحو ذلك من الأمور المرتبطة بالمكلفين ، وهي من أخبار المرسلين ، والحكم بأنّ الكتابة نشأت في أمة متأخرة بالنسبة للوجود الإنساني تحكم ، وحكم على السابقين من الأنبياء وأتباعهم بعدم العلم بالكتابة ، وهذا حكم بغير علم .

والنقطة الثالثة ـ انتقال عقيدة التوحيد من مصر :

قبل معرفة انتقال عقيدة التوحيد من مصر نتساءل : هل ما ذكره أولئك عن عبادة المصريين توحيد بالمعنى الصحيح ؟

وجواب هذا السؤال : أنّ ما ذكروه عن عبادة القوم بعيد

(١) انظر : الجامع لاحكام القرآن للقرطبي ٩ /٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ /٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) سورة العلق الآيات (١ . ٥) .

كل البعد عن التوحيد الذي لا يسمى به دين ، إلاَّ إذا كان مبناه على اعتقاد أن الله واحد في ذاته ، وفي أسمائه ، وصفاته لا ند له ، ولا شبيه ، وواحد في ربوبيته ، وإلهيته لا رب سواه ، ولا إله غيره[1] .

وأيضاً فإن ما وصفوه من دين هو عبارة عن مظاهر وثنية يعتقدونها من آثار دعوات كهان ، وإذا كان هذا هو التوحيد في مفهومهم فإن المشركين الذين بعث إليهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا أهل توحيد ، فهم يؤمنون بالله ويرون أنه الخالق الرازق المحيي المميت ، قال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنّى يؤفكون** ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون** ﴾[3] . وقوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنّى يؤفكون** ﴾[4] . وكانوا مع هذا الإقرار يعبدون الأوثان على أنها وسائط تقربهم إلى الله زلفى ـ على زعمهم ـ قال تعالى فيما حكاه عن متخذي الأولياء : ﴿ . . . **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا**

---

(١) انظر : التعريفات للجرجاني ص ٣٧ ، ودعوة التوحيد للهراس ص ٧ ، ٨ .

(٢) سورة العنكبوت آية (٦١) ، وفي مثل معناها آية (٢٥) من سورة لقمان ، وآية (٣٨) من سورة الزمر ، وآية (٩) من سورة الزخرف .

(٣) سورة العنكبوت آية (٦٣) .

(٤) سورة الزخرف آية (٨٧) .

إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾[1] .

ومع ما ذكره الله - تعالى - عن حال أولئك الذين بعث إليهم محمد - صلى الله عليه وسلم - من معرفته وإسناد الخلق والرزق والإحياء والإماتة إليه ، وسلوك تلك العبادة ، لم يرد تسميتهم بأهل التوحيد ، بل كانوا مشركين أهل جاهلية دعاهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم قاتل من لم يوحد منهم .

وأما موضوع سريان تلك العقيدة من مصر فأمر لا يصلح فيه مجرد التخمين حيث يمكن مقابلته بمثله ، بعكسه ، ومما هو قطعي : أنّ الله - تعالى - أهلك أهل الأرض زمن نوح - عليه السلام - بالطوفان ، إلا من كانوا معه في الفلك ، قال تعالى : **﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾**[2] . وقال تعالى : **﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾**[3] .

وحيث لم يكن مستقر نوح - عليه السلام - في مصر بعد الطوفان[4] ، فليس انتشار الأمم منها إلى بقية الأجزاء المعمورة

---

(١) سورة الزمر آية (٣) .

(٢) سورة هود آية (٣٧) .

(٣) سورة هود آية (٤٠) .

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٩ /٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، وتفسير القرآن العظيم ٤ /٢٥٦ ، ٢٥٧ .

على ظهر الأرض ، وعليه فدعوى انتشار عقيدة التوحيد - لو سلم صحته - من مصر دعوى بلا دليل ، ثم إن دعوى أصحاب هذا القول مبنية على ما هو أوغل في الخطأ حيث إن نظرتهم إلى التاريخ البشري ليست هي ما صورها القرآن وكذلك نظرتهم إلى ظهور عقيدة التوحيد ، ولن أكرر ما أسلفت في هذا الشأن ، فأتركه لاستحضار القارىء .

والنقطة الرابعة : اعتبار المصريين أول من سنَّ تحريم مباشرة النساء في المعابد ، وتحريم دخولها بعد ذلك دون اغتسال .

هذا الاعتقاد مبني على أن الإنسان تطور في كل شؤونه ، لا في تدينه فحسب - وهو ما سبق التنبيه عليه -[1] ، بل في طباعه ، وعاداته ، وجميع تصرفاته ، وهذا مذهب الطبائعية بعينه ، والغرابة في الأمر أن يجري بهذا قلم مسلم يعلم أن الله - تعالى - خلق الخلق ليعبدوه ، وأرسل إليهم الرسل بالهدى من عنده ، أمراً ونهياً ؛يأمرونهم بكل مفيد ، وينهونهم عن كل ضار،منذ هبوط آدم - عليه السلام - على وجه الأرض ، والله - تبارك وتعالى - مُتَوَلِّيه بالهدى ، إلى أن ختم الله - تعالى - النبوة بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وحفظ دينه بحفظ الوحي .

ومن الباطل اللازم لصاحب هذا القول ، أن الأمم التي عاشت قبل أن يَسُنَّ المصريون سنة تحريم مباشرة النساء في

---

(١) ص : (٧١ - ٨١).

المعابد ، كانوا على حالة أقل في طهارتهم ونظافتهم واحترامهم لأماكن عبادتهم ، ممن هم بعد ذلك ،وكان من أولئك السابقين الأنبياء ، وأتباعهم من عباد الله الصالحين ، وهذا ما لا يقبله مسلم ، أن تكون صفوة الخلق،وأهل عناية اللهوتأديبه ،أدنى في الطهارة ، والنظافة ، واحترام أماكن العبادة من أولئك الوثنيين .

وأيضاً فبناءعلى ذلك الزعم تكون تلك السنن ـ والتي هي من سنن الهدى ـ مما أخذه الأنبياءاللاحقون وشرعوه لأممهم اقتداء بالمصريين ، وأخذاً لهذا التشريع عن سننهم ، وهذا أمر قد يوصل معتقده إلى الكفر ،أو العصيان بحسب حاله علماً ،أو جهلاً .

وختاماً أقول : إن كل تلك الأمور الحسنة التي ظنها اليونانيون وتابعوهم ، من سنن المصريين ومبتكراتهم، هي بلا ريب بقايا من أديان الأنبياء السابقين ، مما تمسك به القوم وتوارثوه مع أشياء أخرى لم يحصل فيها الانحراف كثيراً . والله أعلم .

الثاني ـ فخر بالوثنية :

أورد صاحب كتاب « اتجاهات التربية عبر العصور » ـ نقلاً عن مؤرخ يوناني ـ أموراً عدّها من مناقب المصريين .

قال في حديثه عن التراث الإنساني بالنسبة للإغريق ـ ضمن الفصل السابع ـ تحليل ومقارنة لاتجاهات التربية في

المجتمعات القديمة :

« والمصريون هم أول من سمى الآلهة بألقابها ، وأول من أقام للآلهة الهياكل والتماثيل والمعابد ، وأول من حفر الصور على الأحجار ، ثم هم أسبق الناس إلى إقامة الأعياد العامة والمواكب، وعنهم تعلم اليونانيون ذلك»(1).

أوردت هذا النص هنا لا لمناقشة أفكاره فذلك أمرٌ لا يخفى على من له أدنى إلمام بعلوم الدين الإسلامي ، لكن للتذكير ، بأن واجب المسلم أن يُحِبَّ الحق ويقبله ، وأن يقدمه على ما سواه ، ولو خالف ميله وهواه ، وأن يمقت الباطل ويكرهه ولو كان في مأواه .

وقد نهى تبارك وتعالى نبيه داود ـ عليه السلام ـ عن اتباه الهوى بعد أمره بالحكم بالحق ، لأنه يضل عن سبيل الله . قال تعالى : **﴿ يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾**(2) .

وأقول : لو أن صاحب كتاب « اتجاهات التربية » حاول معرفة قليل من الثقافة الإسلامية ، لأدرك ما يخفى على

---

(1) اتجاهات التربية عبر العصور ص ١٣٦ ، وانظر : مواضع أخرى منه، قريبة من الموضوع ص ٥٨ ، ١٢٥ .

(2) سورة ص آية « ٣٦ » .

المؤرخين القدماء والمحدثين من غير ذوي الدين ، من أن ما ذكروه من أمور كان عليها المصريون هي من آثار أديان الأنبياء السابقين .

وإن في دراسة تاريخ المسيحية ما يعطي دليلاً على ذلك التدرج من الصحة والصفاء إلى الفساد والوثنية ، وكذلك كانت اليهودية . إلى أن نسخت تلك الأديان بالإسلام .

وكذلك في دراسة حال المسلمين ـ مع ما امتاز به دينهم من الحفظ عن التغيير والتبديل ، أو الضياع الذي كان يطرأ على الأديان السابقة ـ من كونهم بلغوا به القمة في أول عصوره ، ثم بدأ الانحراف فيهم بين صحوة وغفلة إلى أن وصلوا إلى ما نراه .

فليست تلك الآثار الموجودة في مصر إلا مظاهر انحراف عن عقائد صحيحة أتى بها الأنبياء من وحي الله ـ تعالى ـ وبتقادم العهود طرأ عليها التغيير والتبديل حتى وصلت إلى ما وصفه المؤرخون ، وصوروه من مفاخر القوم ـ ولله في خلقه شؤون .

وصلى الله على خاتم أنبيائه وصفوته من خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الخاتمة

بعد ما قدمته من عرض وتحليل ، ومناقشة ، ودليل ، حول تلك الموضوعات السالفة ، مما هو متعلق بالاعتقاد وضرورة ذلك للإعداد التربوي لجيلٍ يراد منه القيام برسالة معينة ،وحملها إلى من يأتي بعده من الأجيال .

سأضع بين يدي القارىء أموراً رأيتها نتائج توصلت إليها اثناء معايشة هذا الموضوع ومعالجته دراسة ونقداً وهي :

* ضرورة الثقافة الإسلامية لكل كاتب مسلم في أي فن من فنون المعرفة .

* إن إغفال تراث الأمة يورث نقصا في إعداد أجيالها ، كما أن فهم رسالة الإنسان الحقة قاعدة أصيلة في الإعداد لتربية مثمرة .

* إن التربية الواعية المطابقة للفطرة تكسب أهلها قوة لا تُقاس بالماديات .

* فشل التربية إذا هدفت إلى إيجاد الإنسان الآلة .

* إن عدم التفريق بين الأمور المادية ، والمعنوية قدح في الإنسانية - إيضاح هذا : أن اتِّباع أمة بكل آرائها ومعتقداتها ، لأجل تفوقها في الجانب الصناعي ، أو الزراعي مثلاً ، قصور في الإدراك ، وكذا الاتباع في الجوانب المادية تبعاً لصحة المعتقد ، فالأمور المادية مبناها على التجارب ، والمعتقدات مبناها على الوحي ،والخلط بين الأمرين يوقع في الخطأ ، كقياس قوة العقل على قوة البصر .

* ظنية النتائج المبنية على استنتاجات علماء الآثار فيما يجدونه في حفرياتهم من نقوش ،أو رمم ، تبعاً لاختلاف الناس في التعبير عن المحسوسات الحية .

* إن واجهات الأمم ولاتُها ، فهم صورة تحكي واقع غالبها لا كلها في الغالب .

* إن متابعة العدو من غير تمييز طفولة كما أنها طعن في الذات ، وإهانة للنفس .

هذه أبرز النتائج المباشرة من المباحث التي تطرقت إليها في البحث . وهناك نتائج أخرى تستفاد فهماً آثرت عدم إبرازها لوجود الاختلاف في اعتبارها تبعاً لفهم الأدلة ، والمسائل . هذا وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين آمين .

فهـرس المراجـع :

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الإسـلام عقيـدة وشـريعـة / للشيـخ محمـود شلتـوت / دار الشروق .

٣ ـ كتاب الأسماء والصفات / للإمام ـ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي / دار إحياء التراث ـ بيروت . لبنان .

٣ ـ أصول التربية الإسلامية وأساليبهـا ـ في البيت ، والمدرسـة ، والمجتمـع / لعبد الـرحمن النحلاوي / دار الفكـر / الطبعـة الأولى ١٣٩٩ هـ .

٥ ـ الأصـول الفلسفية للتـربية / للدكتـور ـ محمـد عفيفي / نشر مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٧٧ م .

٦ ـ أضـواء البيان في إيضـاح القرآن بـالقـرآن / للشيـخ ـ محمـد الأمين بن محمد الشنقيطي / طبع عـلى نفقة صـاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبد العزيز سنة ١٤٠٣ هـ .

٧ ـ أقـانيم النصـارى / للدكتـور ـ أحمـد حجـازي السقـا / دار الأنصار ـ القاهرة / الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧ هـ .

٨ ـ اقتضاء العلم العمل / للخطيب البغدادي / تحقيق ـ محمد ناصر الدين الألباني / المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ .

٩ ـ إيضاح الدلالة في عموم الرسالة / للإمام ـ ابن تيمية / نشر وتصحيح دار الطباعة المنيرية / الطبعة الأولى سنة ١٣٤٣ هـ ـ ضمن المجموعة المنيرية المجلد الأول ـ الجزء الثاني .

١٠ ـ التاريخ الإسلامي (العهد العثماني) رقم (٨) / لمحمود شاكر / المكتب الإسلامي ـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦ هـ .

١١ ـ تاريخ الدولة العثمانية / للدكتور ـ علي حسون / المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثالثة ـ سنة ١٤٠٣ هـ .

١٢ ـ التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة / لعبد الرحمن النحلاوي / المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثانية سنة ١٤٠٥ هـ .

١٣ ـ التعريفات / لأبي الحسن علي بن محمد الجرجاني / الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧١ م .

١٤ ـ تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة / للدكتور عبد العزيز الحميدي / مركز البحث العلمي ـ جامعة أم القرى بمكة المكرمة ـ طبع بشركة العبيكان للطباعة ـ الرياض .

١٥ ـ تفسير البحر المحيط / لأبي حيان محمد بن يوسف / بهامشه النهر الماد من البحر للمؤلف ـ وكتاب الدر اللقيط من البحر المحيط / للإمام تاج الدين الحنفي / دار الفكر ـ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨ هـ .

١٦ ـ تفسير التحرير والتنوير / للشيخ ـ محمد الطاهر بن عاشور / الدار التونسية ١٩٨٤ م .

١٧ ـ تفسير القرآن العظيم / للحافظ ابن كثير / تحقيق ـ عبد العزيز غنيم ، محمد أحمد عاشور ، محمد إبراهيم البنا / الشعب .

١٨ ـ التفسير الكبير / للإمام الفخر الرازي / دار الكتب العلمية ـ طهران ـ الطبعة الثانية .

١٩ ـ كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل / للإمام ـ محمد بن إسحاق بن خزيمة / مراجعة وتعليق ـ محمد خليل هراس / مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٨٧ هـ .

٢٠ ـ الجامع لأحكام القرآن / للإمام ـ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي / مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٧٣ هـ .

٢١ ـ جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله / للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر / الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م .

٢٢ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس / لأبي عبدالله محمد ابن أبي نصر الحميدي / الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة

١٩٦٦ م .

٢٣ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / للإمام ـ ابن تيمية مطابع المجد التجارية .

٢٤ ـ حول التفسير الإسلامي للتاريخ / للأستاذ محمد قطب / المجموعة الإعلامية ـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨ هـ .

٢٥ ـ الخصائص الكبرى ، أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب / لجلال الدين السيوطي / تحقيق ـ الدكتور ـ محمد خليل هراس / مطبعة المدني سنة ١٣٨٦ هـ .

٢٦ ـ دعوة التوحيد / للدكتور ـ محمد خليل هراس / مكتبة الصحابة / طنطا شارع الجنبية الغربي .

٢٧ ـ الديمقراطية والتربية / لجون ديوي / تعريب الدكتور ـ متى عقراوي ، والدكتور ـ زكريا ميخائيل / لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة سنة ١٣٦٥ هـ .

٢٨ ـ الدين ـ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان / للدكتور ـ محمد عبدالله دراز / مطبعة السعادة سنة ١٣٨٩ هـ .

٢٩ ـ راموز الأحاديث / لأحمد ضياء الدين كمشخانوي / مكتبة ياموق / استانبول سنة ١٤٠٠ هـ .

٣٠ ـ رسالة التوحيد / للشيخ محمد عبده / مكتبة الثقافة العربية .

٣١ ـ سنن ابن ماجه / للإمام محمد بن زين القزويني / تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / المكتبة العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

٣٢ ـ سنن أبي داود / سليمان بن الأشعث / مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد / نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان .

٣٣ ـ سنن الترمذي ـ الجامع الصحيح ـ/ لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي / تحقيق ـ أحمد محمد شاكر / دار إحياء التراث .

٣٤ ـ سنن الدارمي / عبدالله بن عبد الرحمن بن الفضل / نشر دار الفكر .

٣٥ ـ سنن النسائي ـ بشرح جلال الدين السيوطي ، وحاشية السندي / فهرسة عبد الفتاح أبو غدة / الطبعة الأولى المفهرسة سنة ١٤٠٦ هـ .

٣٦ ـ السيرة النبوية / لابن هشام / تحقيق ـ مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلبي / مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق ـ بيروت / دار القبلة ، جدة .

٣٧ ـ شرح العقيدة الأصفهانية / للإمام ابن تيمية / تقديم ـ حسنين محمد مخلوف ـ دار الكتب الحديثة .

٣٨ ـ شرح العقيدة الطحاوية / للقاضي علي بن علي بن أبي العز الحنفي / تحقيق ـ بشير محمد عيون / مكتبة دار البيان ـ

دمشق / الطبعة الأولى - بيروت - سنة ١٤٠٥ هـ .

٣٩ - شرح الإمام النووي على صحيح الإمام مسلم / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٤٠ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل / للإمام ابن قيم الجوزية / تحرير - الحساني حسن عبدالله / الناشر - مكتبة دار التراث .

٤١ - صحيح الإمام البخاري / لمحمد بن إسماعيل البخاري / دار إحياءالتراث العربي - بيروت - لبنان .

٤٢ - صحيح الإمام مسلم / لمسلم ابن الحجاج القشيري / تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان -/ الطبعة الأولى سنة ١٣٧٥ هـ .

٤٣ - العقائد الإسلامية / للشيخ سيد سابق / مطبعة حسان / الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٦ هـ .

٤٤ - العقيدة في الله / لعمر سليمان الأشقر / مكتبة الفلاح - الكويت - الطبعة الأولى سنة ١٣٩٩ هـ .

٤٥ - العقيدة والأخلاق . وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع / للدكتور - محمد بيصار / دار الكتاب اللبناني / الطبعة الرابعة - سنة ١٩٧٣ م .

٤٦ - العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا / لعبد الكريم مشهداني / منشورات المكتبة الدولية - الرياض ،

ومكتبة الخافقين ـ دمشق / الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ .

٤٧ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري / للإمام ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني / ترقيم ـ محمد فؤاد عبد الباقي / تصحيح ـ الشيخ عبد العزيز بن باز / دار الفكر .

٤٨ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل / للإمام ابن حزم / تحقيق الدكتور ـ محمد إبراهيم نصر ، والدكتور ـ عبد الرحمن عميرة ـ مكتبة عكاظ ـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢ هـ .

٤٩ ـ فلسفة التربية / لفيليب ـ هـ ـ فينلس / ترجمة وتقديم ـ الدكتور ـ محمد لبيب النجيعي / نشر دار النهضة العربية ـ القاهرة سنة ١٩٨٢ م .

٥٠ ـ في اجتماعيات التربية / لمنير المرسي سرحان / مكتبة الأنجلو المصرية / الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٢ م .

٥١ ـ رسالة في السماع والرقص / للشيخ ـ محمد بن محمد المنبجي ـ ضمن مجموعة الرسائل المنيرية المجلد الثاني ـ الجزء الثالث ـ دار الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٦ هـ .

٥٢ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل / لأبي القاسم جار الله الزمخشري ـ معه : الكافي الشاف . في تخريج أحاديث الكشاف / لابن حجر العسقلاني / ويذيله الانتصار ، وحاشية محمد عليان ومشاهد الإنصاف / دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان .

٥٣ ـ كشف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع / لأبي العباس أحمد بن محمد بن حجر الهيثمي / تحقيق ـ محمد عبد القادر عطا / دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦ هـ .

٥٤ ـ كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة / للأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني / دار القلم ـ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ .

٥٥ ـ لسان العرب / للإمام أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور / دار صادر بيروت .

٥٦ ـ لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية / لمحمد بن أحمد بن سالم السفاريني / منشورات مؤسسة الخافقين ـ دمشق / الطبعة الثانية سنة ١٤٠٢ هـ .

٥٧ ـ ما أصل الإنسان ؟ إجابات العلم والكتب المقدسة / للدكتور موري بكاي / ترجمة ونشر ـ مكتب التربية العربي لدول الخليج / مطبعة مكتب التربية الرياض ١٤٠٦ هـ .

٥٨ ـ مجموعة فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية / جمع وترتيب ـ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ـ ومساعدة ابنه محمد ـ الطبعة التي أشرفت عليها رئاسة شؤون الحرمين الشريفين .

٥٩ ـ المستدرك على الصحيحين / للحاكم الإمام أبي عبدالله / وبذيله التلخيص للذهبي / محمد أمين دمج ـ بيروت ـ

لبنان .

٦٠ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل / بهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال / المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ـ دار صادر ـ بيروت .

٦١ ـ المسيحية وملحق « قضية الألوهية » كنموذج للمقارنة بين قضايا الأديان / للدكتور ـ أحمد شلبي / مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٣ م مطبعة السنة المحمدية .

٦٢ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي / للعلامة أحمد بن محمد المقري الفيومي / تصحيح ـ مصطفى السقا ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

٦٣ ـ معجم البلدان / لياقوت الحموي / دار صادر ، دار بيروت .

٦٤ ـ المعجم الوسيط / لمجمع اللغة العربية / قام بإخراجه إبراهيم مصطفى ورفاقه / أشرف على طبعه عبد السلام هارون .

٦٥ ـ المفردات في غريب القرآن / لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني / تحقيق ـ محمد سيد كيلاني / دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان .

٦٦ ـ مقدمة العلامة ابن خلدون (الجزء الأول من كتاب

العبر) الطبعة الرابعة ـ سنة ١٣٩٨ هـ ـ توزيع دار الباز .

٦٧ ـ منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب / للشيخ عبد العزيز بن حمد بن ناصر آل معمر / نشر دار ثقيف ـ الطائف ـ المملكة العربية السعودية / الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨ هـ .

٦٨ ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية / للإمام ابن تيمية / بهامشه ـ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول / دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

٦٩ ـ الموسوعة العربية الميسرة / إشراف محمد شفيق غربال / دار الشعب / مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر .

٧٠ ـ الموطأ / للإمام مالك بن أنس / تصحيح وترقيم ـ محمد فؤاد عبد الباقي / دار إحياء التراث العربي .

٧١ ـ كتاب النبوات / للإمام ابن تيمية / يطلب من مكتبة الرياض الحديثة .

٧٢ ـ نظرات في التربية الإسلامية / لعز الدين التميمي ، وبدر إسماعيل سمرين / دار البشير عمان / الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥ هـ .

٧٣ ـ نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار ـ شرح منتقى الأخبار / للإمام محمد بن علي الشوكاني / دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان ـ سنة ١٩٧٣ م .

٧٤ ـ هل الإنسان خليفة عن الله في أرضه ؟/ للأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني / بحث في مجلة كلية الدعوة وأصول الدين بمكة المكرمة ـ السنة الأولى ١٤٠٢ هـ العدد الأول ص ٣١ ـ ٤٧ .

٧٥ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى / للعلامة ابن القيم / ضمن الجامع الفريد / طبع مطبعة المدينة ـ الرياض .

فهرس الموضوعات